روايات الهلال

رضوى عاشور

خديجة وسوسن



روايات الهلال
Rewayat Al Hilal

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمي

تصدر عن مؤسسة دار الهلال

العدد ٤٩٢ ديسمبر ١٩٨٩
جمادى الاولى ١٤١٠ هـ
NO . 492 DE . 1989

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

سكرتير التحرير
محمود قاسم

● الاشتراكات ●

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية اثنا عشر جنيها . وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عاليه عند الطلب .

أسعار البيع للعدد الممتاز فئة ٢٠٠ قرش :-

لبنان ٧٠٠ ليرة ، الاردن ٦٠٠ فلس ، الكويت ٥٠٠ فلس ، العراق ٢٥٠٠ فلس ، السعودية ٧ ريالات ، البحرين ١٢٠٠ فلس ، الدوحة ٨ ريالات ، دبى ٨ دراهم ، أبو ظبى ٨ دراهم ، مسقط ٨٠٠ بيسه ، تونس ١٦٥٠ مليما ، المغرب ٢٠ درهما ، غزة والضفة ١٢٥ سنتا ، الجمهورية العربية اليمنية ٨ ريالات ، جمهورية اليمن الديمقراطية ٢ دولار ، ايطاليا ٣٠٠٠ ليرة ، لندن ١,٥٠ جك .

اشترك فى روايات الهلال

الكويت : السيد عبد العال بسيونى زغلول الصفاة - ص . ب رقم 13079٢١٨٣٣ - تليفون - ٤٧٤١١٦٤

للحصول على نسخ من روايات الهلال اتصل بالتلكس : 92703 HILAL. U. N.

الادارة دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب - القاهرة
تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

الغلاف بريشة الفنان :
حـلـمـى الـتـونـى

خديجة وسوسن

بقلم

رضوى عاشور



دار الهلال

الجـــــزء الأول

خـــديجـــــة

- ١ -

- سأقوم بدور الملك والا فلن ألعب !
قررت أن أوقعه في شر أعماله
- أوافق • أنت الملك شرط أن توزع الادوار وتدير اللعبة • كنت واثقة من فشله ، ولكنه قال :
- اذن أنا الملك ومجدى الوزير وأنت الجارية !
وابتسم وهو ينظر الى بانتصار شرير • قلت :
- لن ألعب !
قال مجدي :
- أحمد على حق وأنت التى تفسدين كل شيء !
- حتى أنت يا مجدى ؟!
أدرت لهما ظهرى وانصرفت الى حجرتى • أخرجت من درج المكتب كراسة الرسم والأقلام الملونة • أحمد غبى وبليد ولم يكن ترتيبه الاول فى المدرسة طول حيــاته فكيف يكون قائدا للعبة ؟ ومجــدى مزعج ويعاندنى بلا داع • والاثنان أصغر منى فلمــاذا لا ينفذان ما أقوله ؟!
جلست الى المكتب وفتحت الكراسة الكبيرة •• ماذا أرسم الآن ؟
تركت النصف الأعلى من الصفحة ورسمت فى نصفها الأســفل خطوطا زرقاء متموجة وأسماكا ، صغيرة وكبيرة ، برتقالية ورمادية ، وســمكة القرش بأسنانها المخيفة • وفى القاع رسمت نجم البحر والأصــداف والقواقع والمحارة المغلقة على اللؤلؤ الثمينة يجاورها الاخطبوط الشرير رساسيا ومقرفا •
عدت للجزء الابيض المتروك ، رسمت الشمس فى الجهة اليمنى : دائرة تحيط بها خطوط أشعتها ، صفراء وبرتقالية ، وفوق الموج رسمت القارب : هلال نائم يعلوه شراع مثلث • وفى القــارب البنت : وجه وضفيرتان وثوب منقــوش بالزهور • ثم كتبت اســـمى على الشراع فاكتملت الصورة • حملتها وركضت الى الولدين •

نظر مجدى الى الرسم منبهرا أما أحمد فلم يفوت الفرصة :
ـ تعالى يا خديجة لتلعبى معنا ٠
لم أنتظر تكرار الدعوة ، أعلنت :
ـ أنا الملكة ومجدى الوزير وأحمد السفير ٠
ثم وأنا أوجه الكلام الى أحمد :
ـ أرأيت لقد عينتك سفيرا ، فلماذا تتصور اننى ضدك ؟ سوف تحمل يا سفير أحمد كل الرسائل الهامة الى البلاد الاجنبية ٠
بدأت اللعبة : وقفت مرفوعة الرأس ومتصلبة كما يليق بملكة وأعلنت بصوت مجلجل :
ـ انا خديجة ملكة مصر قررت بنـاء هرم أكبر من اهرام الجيزة الثلاثة ٠ ياوزير مجدى أبلغ الاهالى بالخبر السعيد وارسل فى طلب المهندسين والبنائين والنقاشين والفنانين للبدء فى العمل ٠
ـ سمعا وطاعة يامولاتى ٠
ـ ياسفير أحمد ، اذهب بهذه الرسائل الى كل البلاد الصديقة وادع ملوكها وملكاتها ، والامراء والاميرات والنبلاء والفرسان ، والعلماء المشهورين لحضور الحفل الكبير الذى تقيمه الملكة خديجة بعد شهر احتفالا بانتهاء البناء ٠
ـ سمعا وطاعة يامولاتى ٠
ـ خذ هذا الخاتم دليل أنك سفير من عندى ٠
أخذ منى أحمد الخاتم الوهمى ووضعه فى اصبعه واستدار ليبدأ مهمته ٠
ـ سيدوم احتفالنا أربعين يوما ، أفراحا وليالى ملاحا فى القصر وفى البلاد كلها ٠
مرت ثوان من الصمت قطعها تصفيق مجدى الذى أعلن :
ـ انتهى بناء الهرم الاكبر يامولاتى ٠ علقنا الزينـات وأقمنـا الاعياد ٠
بعدها صفق أحمد :
ـ عدت من رحلتى يامولاتى ٠ دعوت كل الملوك والنبلاء ٠
قلت وأنا أقفز باتجاه طاولة قديمة وأبدأ فى الدق عليها :
ـ الآن نفتتح الحفل الكبير ، دقوا الطبول وانفخوا الابواق !
شاركنى مجدى فى الدق على الطاولة فى حين أخذ أحمد يقلد صوت النفير وهو يتمايل بجسده ٠ عدت الى مكانى لاستقبال المدعوين

ووقفت مرفوعة الرأس أمسك طرف ثوبى بيدى اليسرى : يعلن أحمد اسم كل وفد فأجيب بايماءة ملكية وأمد يدى للسلام وفجأة قفز الى جوارى صائحا :

ـ الآن وقد اكتمل الضيوف ، نرحب بكم جميعا وندعوكم لحمل الملكة خديجة فى موكب كبير الى الهرم ٠٠ لندفنها فيه !

يضحك كالمجنون ٠ لم أتصور انه سيخرج عن الدور المرسوم ويتصرف بهذا الشكل الشرير ٠ انه ينتقم منى لأنى لم أعطه دور الملك ٠

ـ أحمد ، يكفى ، هذه سخافة !

ـ الهرم مكان للدفن ، كلنا نعرف هذا ، أليس كذلك يامجدى ؟

رأيته يغمز بعينه لمجدى الذى أجاب :

ـ أحمد على حق !

ـ لا تفسدى اللعبة ، لابد أن تدفنى !

ـ لن أدفن !

***

فى العطلة الصيفية أقضى معظم الوقت مع أخى أحمد ومجدى ابن الجيران ، نلعب فى حديقة البيت فى ظل النخلتين العاليتين اللتين تطرحان بلحا سمانيا أصفر ، نركض حول الاحواض المزروعة بالنعناع والعتر والريحان ، نلعب « استغماية » ، « وعسكر وحرامية » و « أولى » والعابا أخرى اخترعها أنا ٠ نظل نلعب حتى يعود أبى من عمله فنصعد معه ، أنا وأحمد ، لنتناول الغداء أما مجدى فيعود الى بيت جدته ٠

أبى يعمل صيدليا ٠ فى الصباح يشتغل فى معامل وزارة الصحة ، وفى المساء يذهب الى الصيدلية التى يمتلكها بالقرب من ميدان الجيزة وبامكانى لو سمحوا لى أن أذهب وحدى ٠ أمشى فى خط مستقيم حتى شارع الروضة ثم أعبر كوبرى عباس فأصل الصيدلية التى تعلوها لافتة ضخمة تضيئها فى الليل مصابيح النيون ، مكتوب عليها بخط بارز « صيدلية الشفاء لصاحبها الدكتور محمود عبد الكريم » عندما تقول أمى أننى مؤدبة يكافئنى أبى باصطحابى معه الى الصيدلية ٠

أحب أن أرى أبى فى الرداء الابيض يتحدث مع الزبائن ويقرأ « الروشتات » ويأتى بالدواء المطلوب من الارفف الكثيرة التى تغطى الجدران وأحب أن أراقبه حين يدخل الى الغرفة الداخلية ليصنع مزيجا ٠ يمسك بزجاجة بنية ويضع فيها قمعا من البلاستيك الاخضر ثم يصب فيها محاليل مختلفة من زجاجات كبيرة بيضاء ٠ وحين ينتهى من خلط المحاليل يرفع القمع ويغلق الزجاجة بسدادة من الفلين ويكتب على

الملصق اسم الدواء وعدد مرات تناوله ثم يرج الزجاجة بقوة ويعطيها للزبون ٠

احب الذهاب الى الصيدلية لان أبي يعطيني أوراقا مصقولة عليها صور ملونة ترسلها اليه شركات الدواء الاجنبية وأيضا لان هناك محلا كبيرا للعصير ملاصق للصيدلية ٠ آخذ من أبي نقودا وأدخل المحل لاشترى كوبا من عصير المانجو ٠ أعطى البائع ثلاثة قروش فيأتي بزجاجة عصير ويصب منها في كوب زجاجي كبير ٠ أرى قطع المانجو وهي تنزلق مع العصير في الكوب وأسمع صوت انزلاقها أيضا فيمتلىء فمي باللعاب ٠ ولكن ماما لا تقول أنني مؤدبة الا نادرا ٠ غالبا ما تقول انني « معجونة بماء العفاريت ! » ٠

***

ـ خديجة أنت لا تحبين الا نفسك ، أنت أنانية !

ـ وأنت غبي وحمار وكلب !

تدخل مجدى :

ـ أحمد على حق ٠ لن نلعب معك أبدا وسنشكيك لأمك ٠

ـ أنا أيضا سأقول لها انكما قفزتما أول أمس من فوق السور وذهبتما الى شارع الروضة دون اذنها ٠

أحمر وجه أحمد من الغيظ ووضع ذراعه على كتف مجدى وأعطاني ظهرهما وسارا بعيدا فتركتهما وذهبت ٠

فتحت دولاب ملابس أمي ودسست وجهي داخله أبحث عنها بعيني وأنفي أيضا اذ كانت لها رائحة مميزة ٠٠ وجدتها فحملتها بين يدى وجلست على السجادة بين السرير والحائط تحت النافذة العريضة التي تضيء الحجرة ٠

انها حقيبة يد كبيرة نسبيا تذكرني في كل مرة بحقيبة الست حنيفة الحكيمة التي تدخن وتتحدث في السياسة كالرجال ٠ الحقيبتان متشابهتان في الشكل ، لهما نفس الجلد البني القديم ٠ ولكن حقيبة الست حنيفة التي تقول ماما أنها ساعدتها في الولادة تفوح منها رائحة الدواء ٠ عندما كنت صغيرة كنت أفزع من مجرد رؤية هذه الحقيبة لانى أعرف أن بداخلها الابرة الزجاجية والمحقن المعدني والسن الرفيع الحاد (تخرجهم الست حنيفة من حقيبتها وتضعهم في آنية نحاسية تملؤها بالماء وتتركه على النار ليغلي بعدها تركب الابرة وتسحب فيها المصل ثم ٠٠٠) كنت صغيرة وبلهاء ٠ الآن كبرت وأصبح عندى عشر

سنوات · أراقب أبي وهو يربط ذراع أحد الزبائن بحبل مطاطي ويرشق سن الابرة الرفيع ، ولا أهتم ·

ولكن رائحة هذه الحقيبة تختلف · أفتحها وأقلبها فتنهمر الصور : صور كثيرة مختلفة الحجم واللون ، بعضها بياضه أصفر واسوده بني ، وبعضها الآخر أبيض وأسود ، بعضها ورقه سميك والآخر لامع ومصقول أحب أن أمر عليه براحة يدي · بطاقات بريدية ملونة مكتوب على ظهرها بخطوط منمنمة لا أستطيع قراءتها · أفسح لنفسي مكانا بين الصور ، أنام على بطني واستند على مرفقي وأبدأ في التأمل ·

صورة جدي لأبي الذي مات قبل أن أولد · كان مزارعا يملك أرضا يمر عليها كل يوم راكبا حصانه يباشر الفلاحين الذين يزرعون ، هذا ما يقوله أبي · جدي في الصورة يرتدي جبة وقفطانا وعمامة وله شارب كث طرفاه مفتولان لأعلى · أضحك وأنا أتأمل أبي وأعمامي · أطفال يلبسون الطرابيش ـ أبي أصغرهم وأنحفهم ـ أعمامي الخمسة كلهم في الصورة أما عمتاي فغائبتان منها « لماذا يا بابا ؟ » « لأن جدك لم يكن يسمح للبنات بالذهاب الى المصور ولا للمصور بالدخول عليهن في البيت » · جدي لأبي لم يكن يسمح ولكن أخاه ، جدي لأمي ، فقد ارسل بابنته الى المدرسة · وهذه صورة أمي وسط الزهور لها ضفيرتان وعينان واسعتان وفم كبير مفتوح على آخره ، تضحك رغم أنها الآن لا تفعل ذلك الا نادرا وتعنفني يوميا وتقول ان الضحك بصوت عال لا يناسب البنات ·

عمتي فهيمة في هذه الصورة التي التقطها لها أبي عندما جاءت الى القاهرة للعلاج تبدو متجهمة مسكينة ! يكرر أبي كلما رأى الصورة « لأنها ماتت يا بابا ؟ لأنها ماتت قبل أن تتزوج « كانت عمتك جميلة وطيبة وتحسن الطهو ولكنها مسكينة بلا حظ ماتت قبل أن تتزوج » · عمتي فهيمة هي المسكينة أما عمتي كريمة فهي المحظوظة لأنها تزوجت ، وزوجها رجل طويل جدا وعجوز و « مناخيره قد الكوز » · أضحك لانطباق المثل عليه ، وهو دائما مكفهر الوجه يزجر عمتي ويخلق لها المشاكل ولا يبتسم الا لو جاءه ضيوف أو نجح أحد أبنائه الثمانية ·

« بابا في المعمل » لمحت طرفا لصورته المفضلة عندي فسحبتها من تحت كومة من الصور · أبي وهو طالب في كلية الصيدلة بالجامعة

يقف في المعمل بين الانابيب الزجاجية غريبة الشكل ، يضحك وهو يرتدي البالطو الابيض ٠

فوجئت بضحكته الاليفة تقطع صمت الحجرة ، رفعت عيني فرأيته، نظرت حولي فوجدت الصور المتناثرة تغطي السجادة ٠ رحت أعيدها بسرعة الى الحقيبة يهون من أسفي عودة أبي من عمله وحلول ساعة الغداء ٠

ـ بابا هل يمكن أن آخذ هذه الصورة ؟

رفعت صورته في المعمل ليراها ٠ عندما وافق جمعت الصور المتناثرة وأعدتها الى الحقيبة التي ألقيت بها على عجل في قاع الدولاب واندفعت راكضة الى غرفتي ولكن أبي ناداني لكي أغلق باب الدولاب الذي تركته مفتوحا على مصراعيه ٠ فعلت ثم ذهبت الى حجرتي وثبت الصورة في الاطار الخشبي لمرآة التسريحة ٠

بابا وسيم في الصورة وفي الحقيقة ويعرف أشياء كثيرة كلها مدهشة وهو ظريف يعرف كيف يجعلني أضحك حتى عندما أكون غاضبة أو أبكي ٠

عندما كنت صغيرة كنت أريد أن أكون مثل أبي في كل شيء وأن أصبح صيدلية مثله ٠ كنت أجمع العلب الفارغة وصناديق الكرتون الصغيرة وأصفها على المائدة المعدنية المركونة تحت تكعيبة العنب وأبيع الدواء لأحمد ومجدي ٠ ثم غيرت رأيي وأعلنت على مائدة الغداء : « عندما أكبر سأصبح بطلة رياضية » أنا أمهر تلميذة في المدرسة ، أستطيع تنفيذ أي تمرين تطلبه المدرسة وهي تقول لزميلاتي : « أنظرن كيف تؤدي خديجة التمرين » فينظرن ٠ في مسابقات الركض أسبق الجميع وعندما أراهن أحمد ومجدي على أي منا يستطيع الوقوف على رأسه مدة أطول أكسب ويخسران ٠ وبمقدوري أن أمشي على يدي أما هما فلا يقدران ٠ كنت أريد أن أصبح بطلة رياضية ، كان ذلك العام الماضي ، الآن لا أريد ٠ سأدرس الجغرافيا وأطوف العالم كسندباد ، هذا هو قراري الأخير ٠ قلت ذلك لأبي وأمي وأحمد ومجدي وزميلاتي في المدرسة ولأبلة فاطمة مدرسة الجغرافيا التي قالت : « الخريطة التي رسمتها خديجة هي أفضل خريطة ٠٠ صفقن لها » فصفقت لي البنات وأخذت الكراسة فوجدت ١٠/١٠ ونجمة ذهبية جميلة ملصقة بجوار كلمة « ممتاز » ٠

عندما أكبر سأطوف العالم ، سأرسم خرائط وصورا للمناطق التي أزورها ، وسأكتب عن الاشياء الغريبة التي أراها وأحتفظ بكل

شيء في صندوق خشبي ضخم شبيه بصندوق عمتي كريمة التي تقول انها ورثته عن جدتي · صندوق يشبهه في الشكل والحجم ولكنه أحلى لأنه مرسوم وملون ·

افكر في صورة أبي المثبتة في اطار المرآة المواجهة لسريري وأغمض عيني وأحكم الغطاء حول جسمي فأرى نفسي على ظهر سفينة كبيرة بها بحارة كثيرون وصناديق ضخمة بعضها من الخشب المحفور وبعضها مطعم بالذهب والفضة وصندوقي المزين بالرسوم الملونة والزخارف الجميلة · أروح وأغدو ، أتحدث وأضحك ، تشق السفينة البحر الازرق الواسع ثم فجأة تبرق السماء وترعد وينهمر المطر ويعلو الموج كالجبال فتتأرجح السفينة وسط الظلام يقطعه هدير البحر الهائج · وصيحات الاستغاثة ·· أشهق في رعب ·· ثم أبتسم وأنا أخطو في جزيرة بديعة كلها زهور برية وأشجار عالية تتدلى منها ثمار المانجو الشهية · أتوغل في الجزيرة التي بلا أصوات ، أرى المشاهد الملونة واستنشق الروائح الزكية ولا أسمع سوى حفيف الاغصان ووقع قدمي على الارض ·· أجفل فزعا وقد هبط الليل على النهار فجأة فأظلمت الدنيا · كان طائر الرخ قد نزل الجزيرة فاردا جناحيه الهائلين ثم طار وأنا أمسك بطرف مخلبه · رأيت الجزيرة كقرش صغير في المحيط وضحكت وأنا خائفة ·· راح الخوف وبقيت أضحك وأنا في مدينة عجيبة يتحدث أهلها بالمعكوس جملتهم تبدأ من اخرها ·· أتصبب عرقا وأنا أصعد جبلا شاهقا مغطى بالثلوج وأبلل شفتي بلعابي أكاد أموت عطشا في الصحراء التي تمتد بامتداد البصر · أرتعد خوفا وأنا في الغابة وتكاد ساقاي لا تحملانني ثم أبتسم ، أضحك وأنا أحيي المستقبلين الذين جاءوا الى الشاطىء لتحيتي ·

وأعود الى البيت · أجلس الى مكتبي أكتب كل شيء وأرسم كل شيء وأودع الاوراق الصندوق الذي يحمل اسمي · أغلقه وأحكم اغلاقه بالقفل والمفاتيح · وعندما يأتي الناس لرؤيتي أحكي طويلا وأفتح الصندوق وأطلعهم على الصور والنفائس فينبهرون ويقولون خديجة أكبر عالمة جغرافيا في العالم ويكون كلامهم صحيحا لانني سأعرف كل ركن وزاوية من هذه الدنيا تماما كما أعرف البيت الذي أسكن فيه · ويكون كل شيء مسجلا بالرسم والكتابة في الاوراق المحفوظة في الصندوق المغلق بقفل لا يحمل مفاتيحه الا أنا ·

***

افتتحت ورشة نجارة صغيرة في الشارع الجانبي الذي أطل عليه

من نافذة غرفتي · تابعت النجار وصبيه وهما يقطعان ألواح الخشب بالمنشار وينعمانها بالفارة ويعـــدان الغراء على النـار ويدقان ألواح المسامير · بعد أيام من المراقبة نزلت الى المحل وعرضت أن أشاركهما العمل · ضاقت عينا النجار الصغيرتان حتى أصبحتا شرطتين في الثلث الاعلى من وجهه المستطيل وضحك ، ضحك بصوت أجش عال أخافني وجعلني أتساءل ان كان الرجل طيبا أم شريرا ·

ـ يا ابنتي لا يمكن أن تكوني صبية في المحل لانه ـ لا مؤاخذة ـ النجارة ليست شغلة نســـوان · أعرف ، أنت تريدينها هواية لكن بالنسبة لي والواد محمد (أشار لصبي تلمع عيناه في العتمة النسبية للمحل كعيني قط عسليتين) النجارة هي رزقنا وأكل عيشنا ·

وعاد النجار للاهتمام بلوح الخشب الذي كان ينشره وهو يواصل الضحك · رجعت الى البيت وأنا أجر قدمي أشعر بالخيبة ولا أفهم لماذا ضحك مني النجار · ربما لم يقصد سوءا حين ضحك ، ربما حين يتعرف علي ويعرفني ويجد أنني ذكية وسريعة التعلم يرضى عني ويحبني · وهذا الولد محمد لم يكف عن مراقبتي وأنا أتحدث مع النجار · كان يلبس حذاء من المطاط وفانلة صفراء قديمة وبنطلونا رماديا مهترئا فلمـــاذا يقبله النجار صبيا ولا يقبلني ؟ قال انها ليست شغلة نسوان فلماذا لا تكون كذلك ؟!

اقضي الساعات في مراقبة النجار من النافذة · ارفض أن ألعب مع أحمد ومجدي ولا يشغلني الا اقناع النجار بالعمل معه · أحكي لأبي فتقول أمي أنني فقدت عقلي ولكنني ألح ، كل يوم أتحـــدث مع أبي في الموضوع وأطلب منه أن يقنع النجار حتى كان ذلك اليوم الذي قال أبي لأمي أنه تحدث مع عم عبد الله النجـــار فوجده رجلا عاقلا وطيبا وانه لا داعي للقلق ·· ولم أنتظر لاســـمع باقي الكلام بل ركضـــت الى الشارع ولم أتوقف الا أمام باب النجار الذي نظر الى بدهشة كأنه لم يعد يذكرني وعندما ذكرته بنفسي ابتســـم وطلب مني أن أجلس على كرسي وألاحظ ما يقوم به هو « والواد محمد لأنه أسطى وشـاطر ! » أغاظتني الملحوظة لكني قلت لنفسي ان الصبر طيب وقبلت بالجلوس على الكرسي والمراقبة ولو مؤقتا حتى يقتنع عم عبد الله بأنني أصلح · وعندا الولد محمد لا يبـــادلني أي كلام كأني غير موجودة · انه ولد

مغرور والغـــرور عيب خطير وهذا ما أكدته مدرســة الحساب في المدرسة ٠

بعد أسبوع من الجلوس على الكرسى ســمح لى عم عبد الله بمساعدته : أقلب الغراء ، أمسك لوحا من الخشب ، أدق مسمارا ٠ تعلمت منه أشياء عديدة علمت بعضــها لاحمد ومجـدى وفى البيت استطعت اصـــلاح مقعد كسر أحد قوائمه حتى أن أمي شــهدت لى بالمهارة ٠

محمد لم يعد يتجاهلنى وعندما أستفهم منه عن شيء يفهمه لى ٠ انه ليس مغرورا أنه لطيف وذكى لكنه لا يعرف القراءة والكتابة ٠ عرضت عليه أن أعلمه فقال : « ان شاء الله » ولم أفهم ان كانت اجابته تعنى الرفض أو القبول ٠ كررت عرضى فقال على استحياء :

ـ كيف ومتى ؟

ـ هنا فى المحل ، كل يوم أعلمك ساعة ٠

ـ مستحيل لأن الاسطى عبد الله سيقول أننا نضيع الوقت وأنه لايدفع لى أجرى كى أجلس وأقرأ فى الكتب ٠

ـ اذن كل يوم جمعة تأتى لزيارتنا نتغدى معا وأعطيك درسين ، درس قبل الغداء ودرس بعده ، ما رأيك ؟

ـ صعب ٠

ـ لماذا ؟

تلعثم وكأنه غير موافق ولكنى أقنعته فوافق ٠

فاجأنى غضب أمي حين أخبرتها بدعوتى لمحمد ٠ قالت اننى بلا عقل ولا أعمل حسابا لشيء ٠ أمي تتصرف بشكل غريب لا يمكن فهمه وهى تلقى بالاوامر والنواهى بلا منطـــق ٠ جلست أنتظر أبى لكى نتفاهم كما يليق بالعقلاء والاذكياء ٠ فاجـأنى أبى بتصرف أغرب من تصرف أمي : رفض رفضا قاطعا ثم أضاف :

ـ لو سمعت أنك نزلت عند النجار سأكسر رجلك ، مفهوم ؟!

تركنى دون أدنى احتمال فى اســـتكمال النقاش ٠ أبى وأمى يفرضان رأيهما بلا وجه حق ، وبدون منطق فلماذا ؟! دخلت الحمـام وجلست على حافة البانيو ٠ بابا ليس غبيا ، أنا متأكدة ، فهل هو اذن ظالم ومستبد ؟ وما الذى سيقوله محمد ؟ سيقول خديجة كذابة وكلامها كلام عيال ٠٠ ما العمل اذن ؟ لا أعرف ما العمل ٠٠ فأبكى قهرا ٠

بعد يومين خرجت الى الشارع وانحرفت مع سور الحديقة يمينا الى الشارع الجانبى · ذهبت أولا الى البقال واشتريت بكل ما معى من نقود لوحا من الشيكولاته ثم اتجهت الى محل عم عبد الله ·

ـ أشكرك يا عم عبد الله على الاشياء المفيدة التى علمتها لى · للاسف لن أستطيع العمل معك لأن أبى يريد أن أساعده فى بعض الاشغال ·

سلمت على عم عبد الله ولم أنظر الى محمد الذى كنت أشعر بعينيه تتطلعان الى · وضعت لوح الشيكولاته امامه وركضت عائدة الى البيت ·

قالت جدتى : « البنات كشجر الموز » فهزت أمى رأسها موافقة . ولم افهم ما معنى كلام جدتى ولا سبب موافقة أمى على ما قالته . كانت جدتى لأمى امرأة صغيرة الحجم كئيبة الوجه ، لها عينان ضـــــيقتان وجبهة ضيقة ووجه مجعد . وكانت تتحدث همســـا وبصوت مبحوح فتذكرنى بالسحالى . ولم أكن أطيقها ولا أطيق تعليقات أمى المستمرة : « ماذا تقول جدتك لو رأتك بهذا الشكل ؟ » « ماذا تفعل جدتك لوسمعت بهذا الموضوع ؟ » تعليقات لا تنتهى تجعل جدتى حاضرة بيننا فى كل وقت رغم أنها لم تكن تأتى من البلد لزيارتنا الا مرة واحدة فى الســنة لا تكل فيها من الترحم على أيام زمان .

تزجرنى أمى باستمرار وتكـــرر « الولد أرحم » ولا أعـرف لماذا تقول ذلك فأنا أكثر تفوقا من أحمد ، أحصل على الدرجات النهائية فى معظم المواد واضمن حصول مدرستى على كأس المنطقة فى كرة اليـــد وأنوى أن أصبح طبيبة وأعرف أننى سأتمـــكن من ذلك . ولكن أمى تقول : « الولد أرحم » وتنحاز لاحمد بلا وجه حق . تقول : « أنه أخوك ويريد حمايتك » فهل أنا كسيحة أو عمياء لكى يحمينى . أنا أكبر منه وأفضل منه . قالت لى أحدى زميلاتى فى المدرســـة : « هكذا الامهات يفضلن الاولاد ويتحزن لهم ، ويتعاملن معنا بقسوة غير مفهومة » فهـل هذا صحيح ؟ يبدو صحيحا ، فلماذا ؟!

ليست الامور بينى وبين أمى على مايرام . شىء ما يعقدها ويعرقل سلاستها ، قلت لامى وأنا أضحك : « التروس مزرجنة وهى بحاجة الى تزييت » فغضبت وتصورت أننى أهينها وأنا احبها فكيف أهينها ؟هى التى تهيننى باستمرار وتكرر أن الولد أرحم !

ــ ماما قولى لأحمد أن يتركنى وشانى .

ــ يا ماما كانت تطل من النافذة والولد الذى ســكن مؤخرا فى عمارة الجيران لا يرفع عينيه عنها . نبهنى مجدى أن الولد وقح ولا هم له سوى مشاغلة البنات . قلت يا خديجة ادخلى ! رفضت فجذبتها من

ضفيرتها واغلقت النافذة ، هل أخطأت ؟!
صرخت فيه :
ـ طبعا أخطأت !
وانسحبت الى غرفتي وطرقت الباب عامدة ·
تشكوني أمي لابي ، تقول أن جدران البيت كانت ستنهار من عنف طرقة الباب · يقول أبي :
ـ غدا تكبر وتعقل ·
وتقول أمي :
ـ لن تهدأ وتعقل الا عندما نزوجها ·
أمي منحازة الى أحمد ، كلام زميلتي صحيح !

***

قالت لي أمي وهي تضحك :
ـ مبروك ياخديجة ، جاءك عريس ·
نظرت اليها مستفهمة ، قالت :
ـ شاب ممتاز والده من الاعيان يملك أطيـــانا في المنيا · وأمه رحمها الله ابنة عمة زوج زكية ابنة خالتي · يعني ناس من ثوبنا نعرف أصلهم وفصلهم · والشاب عنده ٣٠ سنة وجـراح ودرس في أوروبا وشكله مثل القمر ، بصي !
وأبرزت لي أمي صورة لشاب له وجه مستدير وشعر أملس وشارب صغير معتنى به · كان وسيما · قلت وأنا أعيد لها الصورة :
ـ لا أريد الزواج ·
ـ هذا هو البطر بعينه · لقد جاءنا السعد حتى بابنا فهل نتبغدد ثم نعود ونندم ؟
ـ ولكنني أريد أن أدخل كلية الطب ، وأنت تعرفين ·
ضحكت أمي وربتت على كتفي :
ـ نحن لا نناقش دخول الجامعة · نحن نتحدث عن العريس ·
ـ وماذا قال أبي ؟
ـ قال ان الشاب لقطه !
ـ ماذا قال عن دراستي ؟
ـ لم يقل شيئا !

قالت أمي تستعجلني :
ـ تأخرنا ·

ـ خمس دقائق وننتهي ٠

وقفت تراقبنا ونحن نلعب في الحديقة ٠ وحدي كنت أكون فريقا في مواجهة أحمد ومجدي وكنا نلعب كرة قدم ٠ ضـــحكت أمي وهي تتابع كيف أراوغهما وأركض بالكرة حتي أصـــــل المرمى ٠ صوبت وانتهت المباراة ٠

قلت لاحمد وأنا أطلع له لساني :

ـ عندك حارس مرمي وأنا وحدي ومع ذلك غلبتك ٢/صفر تعيش وتاخذ غيرها ٠ بنا ياماما ٠

اقترحت أمي أن أغير ملابسي ولكنني قلت أن ملابسي نظيفة « بدلى الحذاء على الاقل » ولكنني كررت انه لا داعي ونزلت بصحبتها انتعـــل حذاء المطاط ذا الرباط وكنا نقصد حلاق السيدات ٠

دفعت أمي الباب الزجاجي ودخلنـــا فلفحت وجهي الحرارة رغم المراوح الكهربائية الكبيرة المثبتة في السقف والتي رأيتهـــا وسمعت ازيرها ٠ كانت المرة الاولى التي تصحبني فيها أمي ٠ جلت بعيني في المكان الذي كان صاخبا ومكتظا بالنساء : نساء أسلمن رءوسهن لرجال يقصون الشعر ، يلفونه على لفافات أســـــطوانية صغيرة ، يفردونه بالمكاوي الساخنة ، يصففونه ، نساء مددن أيديهن الى فتيـات تشذب لهن أظافر اليدين ويطلينها بطلاء أحمر ناري ، نســـاء غمسن أقدامهن العارية في أطباق بلاستيك صغيرة مملوءة بالماء ٠ العاملات والعاملون منهمكون في الشعر والايدي والاقدام والنســـــاء يتأملن أنفسهن في المرايا : المرايا الطويلة التي ترى فيهـــا المرأة نفسها كاملة وبالحجم الطبيعي ، والمرايا النصفية التي تجلس الواحدة أمامها فتبصر نصفها الاعلى ، والمرايا متوسطة الحجم في الاطر الخشبية يمسك بها المصفف في مواجهة مرآة أخرى فترى الجالسة شـــكل رأسها من الخلف ، والمرايا الصغيرة بحجم الكف لتأمل تفاصيل الوجه وتسوية الحاجبين ٠

ـ تفضلي ٠

أوضحت أمي أن الشاب سيغسل لى شعرى ٠

ـ أحل الضفائر ؟

ـ هو سيحلها ٠

حل لى الشاب ضفيرتي وقادني الى مقعد جلدى وثير وراءه حوض معدني ٠ أحاط كتفي بمنشفة ثم أمال رأسي للخلف ٠ أســـلمت له نفسي ٠ غسل شعرى بالماء الساخن وصابون سائل أعجبتني رائحته

النفاذة • عندما انتهى أتى بمنشفة أخرى ولف بها شــعرى المبلل • قال الشاب مشيرا الى مقعد آخر : « تفضل » •

جلست أمام مرآة تصفية كبيرة • جاء شاب آخر وسحب المنشفة من على راسى فسقط شعرى الطويل على كتفى كثيفا ومبللا : استغرب شكلى لانى عندما أغسل شعرى أخرج من الحمــــام مباشرة الى أمى وأجلس عند قدميها فتقوم هى بتصفيفه وتضفيره • الان كنت أطالع وجهى فى المرآة ومن خلفه شاب متأنق يحيط معصمه بسلسلة فضية ، له لحية وشارب جعلاه يبدو كرسام ايطالى •

ـ قص !

قالت أمى للشاب • سمعت صوتها دون أن أراها •

أمسك الشاب بالمقص وأداره فى شعرى • يختفى النصل اللامع ثم يظهر فتتساقط الخصلات الســوداء على الارض • أراقب كل شىء فى المرآة • يمسك الشاب بالمشط يفصل خصــــلة يمسك بها بيده اليسرى بين الخنصر والوسطى وبيده اليمنى التى تمســـك بالمقص ، يقص الخصلات هكذا خصلة من بعد خصلة حتى أصبح شعرى يغطى أذنى بالكاد والخصلات المقصوصة تفرش الارض تحت قدمى • جـاء ولد بمكنسة لها يد طويلة وأخذ يكنسها •

لف الشاب خصلات شعرى على لفافات صغيرة ثم أتى بمنديل من الشــــبك وقطعتى قطن • وضـــع على كل اذن قطعة ثم ربط الرأس المتضخم باللفافات بالمنديل • كان منظرى الآن غريبا يبعث على الضحك ولكننى لم أضحك •

انتقلت الى مقعد آخر تعلوه مجففة للشعر • دسست رأسى داخلها وأدار الشاب المفتاح فاندفع الهواء الســـاخن • عندما جف شــعرى انتقلت الى المقعد الاول • فك لى الشاب شعرى ثم أشعل موقدا غازيا رفيعا ووضع عليه مكواة الشعر حتى حمى حديدها فأمسكها وراح يحركها حركة دائرية فى الهواء فماذا لو طارت هذه المكواة فى وجهى الان ؟ أمسك بخصلة شعر وقبض عليها بين القضيبين المحميين فتحـول قلقى الى انزعاج وضيق • درت برأسى أبحث عن أمى فطلب منى الشاب أن أثبت فى مكانى لكى يتمكن من أداء عمله • ســتحرق هذه المكواة شعرى ولا أدرى أين ذهبت أمى لاقول لها ذلك •

ـ هل هذه المكواة ضرورية ؟

ـ شعرك خشن وكثيف • ستجعله المكواة ناعما كالحرير •

ـ ولكنها ستحرق شعري ٠

ضحك الشاب وهو يعيد المكواة الى الموقد لتزداد سخونة !

عندما انتهى من تصفيف شعري قمت لاعود مع أمي الى البيت ٠ البيت على نفسي نظرة في المرآة الكبيرة ٠ أحمد ومجدى لن يتعرفا علي ، قبل ساعتين تركتهما وشعري مفروق ومجدول في ضفيرتين غليظتين والان أعود اليهما وشعري ينسدل مالسا يغطي أذني بالكاد وخصلة امامية تنزل على وجنتي اليمني وتغطي ، لو ملت برأسي قليلا ، نصف وجهي الايمن ، تماما كالممثلات ٠ ابتسمت للفكرة ٠

قالت أمي ترد على ابتسامتي :

ـ لو سمعت كلامي وغيرت ملابسك لبدوت عروسا حقيقية ولكن بهذا الحذاء الكاوتش ٠٠ !

فى البيت تجملت وتعطرت وارتديت ثوبا من الحرير الوردى وحذاء جديدا أبيض له كعب مدبب ٠ وألبستني أمي عقدا من اللؤلؤ وقرطا صغيرا من الماس وزينت وجهي بالمساحيق ٠ وكان أحمد ومجدى يقفان خارج الحجرة ينتظران أن يسمح لهما بالدخول ٠ ولما دخلا كدت انفجر ضاحكة فقد وقفا متلاصقين يحدقان في مستديرى العيون ، فاغرى الفم ، معقودى اللسان ٠ وعندما دخل أبي الحجرة ضحك بصوت عال فضحكا معه قلت : « بابا يضحك عليكما فلماذا تضحكان ؟ » ولكنهما واصلا الضحك حتى استلقى أحمد على ظهره واستند مجدى على الباب لكي لا يسقط من شدة الضحك ٠ فبدأت أنا أيضا أضحك وقالت أمي « الله يجازى شيطانكم يا أولاد » ثم وهي تغالب الضحك « اللهم اجعله خيرا » ٠

كنت أضحك مع أحمد ومجدى ولكني كنت متوجسة ٠ الشاب وسيم ويبدو ذكيا ولكنه عريس ٠ سيأتي ويجلس مرتبكا وأجلس أنا امامه مرتبكة ويمر الوقت ثقيلا تقطعه أمي بكلام لا معنى له مداراة للحرج ، هذا ما يحدث دائما في الافلام ٠

لم يحدث ٠٠ لم يكن العريس مرتبكا ولا محرجا بل كان يتحدث بطلاقة وألفة ويتصرف بشكل طبيعي كأننا نعرفه ويعرفنا ٠ ظلمته الصورة لانه كان أحلى : شعره كستنائي فاتح أشقر تقريبا ، وناعم كالحرير وعيناه خضراوان تحيط بهما رموش طويلة ويعلوهما حاجبان كثيفان يكادان يلتقيان فوق أنف مستقيم وبشفته امتلاء خفيف وله شارب أشقر صغير معتنى به ، كان وسيما كنجم سينمائي وأنيقا كنجم

سينمائي أيضا يلبس بدلة من الكتان الابيض وحذاء أبيض وربطة عنق من الحرير الكحلي وكان في بنصره الايسر خاتم ذهبي ينتهي من أعلى بمسطح بيضاوي عليه نقش لم أتمكن من التقاطه ·

وكان كمال قد أتي مع أبيه : رجل فارع الطول يميل الى السمنة يميزه شعر وشارب فضيان · قال :

ـ عندما نجح كمال في البكالوريا قلت لنفسي « ياصفوت تعليم ابنك خير استثمار » وأرسلته الى انجلترا ليدرس الطب هناك · وعندما تخرج وقال أعود قلت له أبقي حتى تتخصص وتصير جراحا ماهرا وقديرا · تسع سنوات ، قال والد العزيس موجها كلامه الى أمي : تسع سنوات وكمال يدرس في انجلترا · لم يخيب ظني أبدا سافر ناجحا وعاد ناجحا · عندها قلت له يا كمال حان وقت تزويجك والا ···

قاطعه كمال ضاحكا :

ـ والا فاتك القطار ولم تجد من ترضى بك !

سأله أحمد :

ـ انجلترا جميلة يا دكتور كمال ؟

ـ طبعا جميلة · حضارة وتقدم وحرية ··· ولكني أحب باريس أكثر من لندن ·

سأله أحمد مبهورا :

ـ وهل زرت باريس أيضا ؟

ـ زرت لندن وباريس وروما وفيينا ومدنا أخرى كثيرة ·

كانت أمي تصب الشاى وأنا أساعدها في تقديمه وكمال يواصل

ـ لندن كامرأة كئيبة تجثم على النفس بغيومها وأمطارها · أما باريس فبهيجة كخديجة هذا المساء ·

شعرت بالدم يصعد الى وجنتي وضحك والد كمال وأبي وأمي فزاد ارتباكي وتشاغلت بوضع الحلوى في الصحون ·

ـ روما ترتبط في النفس بالدفء والحرارة · عندما أصلها أشعر أنني على أعتاب مصر · أشترى شقة بطيخ من بائع متجول ، أثرثر مع جاري في الاتوبيس ··

سألته :

ـ ولماذا لا تكتب عن رحلاتك في كتاب ؟

ـ لأني جراح ولا أتقن عملا آخر ـ ثم أضاف وهو يضحك ويمد يديه ـ ألا ترين أن أصابعي أصابع جراح ؟!

لم أر في أصابعه شيئا استثنائيا وكدت أســـأله ما الذى يميز اصابع الجراح ولكن غلبني الحياء ·

قالت عمتي كريمة التي جاءت من البلد خصيصا لتبارك بالخطبة انه عريس السعد وذكرتني بحكاية الشاطر حسن الذى يحمل عروسه على حصانه الابيض ولكني تذكرت البجعة في الحكايات الاجنبية التي تحلق فوق المدينة تحمل في منديلها طفلا وليدا · سيحملني كمال في يده ويطير فأرى مثله أشياء كثيرة ، وارى بلادا بعيدة ، وأصير مثله أتحدث بطلاقة وثقة وسط اعجاب الآخرين وانسحارهم ·

يأخذني كمال الى النادي ويعلمني « التنس » · تطير الكرة بيننـا ونطير لنلحق بها ، يمينا ويسارا ، للامام وللخلف · تأتي جدتي لأمي لزيارتنا وتعترض لأنها لم تسمع من قبل عن عروسين يلعبـان الكرة وتعترض على ملابس التنس التي اشتراها لي كمـال : جونلة قصيرة بيضاء وبلوزة قطنية بلا أكمام تقول انه ملبس غير محتشم ولا يصح فتجيبها أمي : « انه خطيبها وسيعقد عليها الشهر القادم فتصبح زوجته يفعل بها مايشاء ! » تمتعض جدتي · ونحن نركض ، نطير حتى تنقطع انفاسنا فنجلس لنشرب عصير الليمون ويمسك كمـال بيدى يقبلها فتعلو أنفـاسي وتهبط ولا أدرى هل هو الركض أم هي قبلة كمـال اشعر بها حارقة على أناملي ·

نركض ·· نطير ، والايام أيضـا · أتزين وألبس ثوب الزفاف الابيض ويرتدى كمال بدلة العريس السوداء ويتعطر · نسير بين صفين من البنات يحملن الشموع المضاءة · تتمايل أمامنا الراقصة على دقات الدفوف ورنات الزغاريد وتنثر أمي وعمتي بدرة الملح المخلوط برقائق ذهبية وعملات فضية ، ويلتقط المصور الصور ·

نركض ، نطير . تحملنا الطائرة الى مدينة جنيف . تتهادى بنا المركب في البحيرة الهادئة ، يطوى بنا القطار التلال الخضراء ، يأخذنا من المدينة ثم يردنا الى ضفاف « ليمـــان » والعشب المشذب وأسراب النوارس · نضحك ونلعب ونمارس الحب والســياحة · يشترى لي كمال طائرة من ورق ، كبيرة وحمراء ومهدبة بورق ملون ، أطلق لهـا الخيط وأتابعها وهي تعلو في السـماء الصـافية · ينتهي الخيط ، أتشبث به ولكن الهواء يجذب الطـائرة فأركض وأضـــحك · تفلت الطائرة من يدى فأتابعها وهي ترتفع في السماء وتبتعد ·

نتناول العشاء في مطعم صغير على ضوء الشـموع ثم نرقص على

عزف ناعم ينبعث من بيانو . أترك كمال يحركنى كما يشتهى . أضحك أقول :

ـ أستطيع أن أقف على رأسى !

ـ تزوجت طفلة وكان ما كان !

فأشب على أطراف أصابعى وأقبله فى فمه قبلة طويلة ، هكذا فى المكان العام . يضحك .

ـ تزوجت امرأة ـ طفلة !

نطير الى بيتنا فى القاهرة ، شقة جديدة واسعة تطل على ميدان مصطفى كامل بقلب المدينة . يلتقط لى كمال الصور : فى الصالون فى كامل زينتى ، فى السرير بملابس النوم ، أمام المرآة وأنا أصفف شعرى ، فى المطبخ وأنا أصنع له القهوة ، فى الحمام وأنا عارية . أصرخ : « يامجنون ! » فيفتح آلة التصوير قاصدا اتلاف الفيلم « رأيت كل الصور الرائعة ، وهذا يكفى ! » .

تنتفخ بطنى ويمتلىء ثدياى وتتورم ساقاى وتثقل حركتى .

ـ الاسبوع القادم نحتفل بعيد ميلادك السابع عشر .

ـ بهذا الشكل ؟!

ـ أنت رائعة .. بهذا الشكل !

أتامل نفسى فى المرآة ما الذى يجعل كمال يقول أننى رائعة بهذا الشكل ؟ أبتسم وأنا أفكر أن الحب أعمى !

أمى تشتغل السترات الصوفية وأنا أنتقى ملابس المولود والمهد المبطن بالحرير « بنت ! » . سماها كمال زينب . بعدها بسنتين جاءت البنت الثانية سميتها أنا سوسن . قال كمال « الحمد لله .. يكفى » ولكنى كنت أريد الولد .. وجاء سعد بعد ذلك بأربع سنوات .

هل كنت أركض أم كانت السنوات هى التى تطير ؟ الخطبة وشهر العسل وشهور الزواج الاولى والسنوات التى تلت . آكل وأشرب وأنام وأصحو أحمل وألد تحيط بى ألفة رقراقة يملؤها كمال بصوته المميز وتعليقاته الذكية ورائحة العطر الذى يستخدمه وطريقته فى دق جرس الباب عند عودته من العمل . وكنت وأنا فى البيت أطعم الصغار وأحميهم وأعلمهم المشى والكلام أتطلع اليه وأتبعه بتلقائية ويسر فى الطرقات التى يختارها ويحددها . كان رائعا ، وكنت أحبه .

- ٣ -

ادرت المفتاح فى الباب ودفعته فانفتح ، دخلت . غسلت يدى وسنعت لنفسى فنجان قهوة . حملت الدلة النحاسية الصغيرة والفنجال ركوب الماء على صينية فضية الى الصالة حيث جلست واشعلت سيجارة « ثلاثة عشر عاما مرت ، فكيف مرت ؟ » فاجأتنى العبارة التى طفت الى وعيى فجأة كأن شخصا آخر نطق بها وسمعتها فاندهشت . كان البيت هادئا وساكنا ولم يتغير اى شىء فيه تماما كما كان فى ذلك اليوم الذى دخلناه ، انا وكمال للمرة الاولى ، ونحن زوجان جديدان عائدان للتو من رحلة شهر العسل .

ساعتها انفتح الباب على السكون والاثاث ، المرآة فى المدخل متوسطة الحجم يعلو رفها حامل من الأرابيسك عليه نسخة مفتوحة من القرآن . ويفضى المدخل للبهو الفسيح تغطى أرضه ثلاث سجاجيد عجمية يشغله ثلاثة أطقم متباينة من المقاعد ، طقم « جوبلان » طرزت عليه يد شاغله مشاهد رعوية لأمراء واميرات اوروبيين ، وطقم لويس الثالث عشر مكون من مقعدين واريكة ومنضدة خشبية ذات اطار محفور ومذهب ، وطقم عربى من الخشب المطعم بالصدف . ألصور فى الأطر الذهبية معلقة على الحائط ، والمنافض البللورية وعلب السجائر المصنوعة من الفضة موضوعة على المناضد الخشبية الصغيرة فى الأركان بين المقاعد .

لم يتغير فى المكان شىء ، يقولون : « خديجة سيدة بيت من الطراز الأول . بيتها دائما نظيف واولادها كالزهور » البيت مرتب كالمعتاد ولكنه اليوم موحش ، لسعد وحشة .

انه اليوم الاول فى حياته المدرسية . أوصلته وعدت . لم يبك كأولائك الاطفال البلهاء الذين يتملكهم الذعر لدخول المدرسة .

كان مقبلا ومنشرحا وجميلا كوردة متفتحة فى القميص الابيض والبنطلون الرمادى وربطة العنق الكحلية وشعره الاملس مفروق من

الجنب ومصففٌ بعناية ، قبلته ولوحت له بيدى فابتسم ولوح لي بيده وذهبت .

دق جرس الباب فقمت لأفتح للخادمة . بعدها جاء الطباخ فاعطيته التعليمات الخاصة بما سنتناوله على الفداء . تصفحت الجرائد وقرات الصفحة الاخيرة وحظك اليوم وصفحة الوفيات .. حللت الكلمات المتقاطعة ثم لم أجد ما افعله فذهبت الي الحلاق لتصفيف شعرى .

أوقفت سيارتى أمام محل الحلاق ، نزلت ودخلت . غسل لى الولد شعرى ثم انتقلت الى مقعد آخر إمام المرآة وقام المصفف بلفه وعندما انتهى صحبنى الىمجففة للشعر دسست فيها راسى وامسكت بمجلة مصورة رحت أتصفحها .

الأولاد يكبرون ، وهاهو سعد يدخل المدرسة وزينب بلغت قبل ان تكمل الثانية عشرة ، انها تنمو بسرعة مدهشة ، بعد عام أو عامين ستفوقنى طولا ... وسوسن ايضا تكبر بسرعة ليس جسمها فقط الذى يتغير يوما بعد يوم بل عقلها أيضا . تقرأ بلا انقطاع وعندما ترفع عينيها عن الكتاب لا يسمع المرء منها الا كلمة « لا » انها عنيدة والكتب تغذى عنادها . اشكوها لأبيها يقول : « هكذا الاطفال فى هذه السن يريدون تاكيد شخصيتهم » ولماذا سوسن هى التى ترغب فىتاكيد شخصيتها وليست زينب وهى الاكبر ؟! سوسن عنيدة وابوها يفسدها بالتدليل ، يفسدهم كلهم وعلى أنا أن آمر وانهى واعاقب واحذر واوجه .. على ان أربى بمفردى وهو غائب ، مشغول ، فى الصباح فى المساء فى الليل دائما مشغول . يطلبونه فى التليفون بلا انقطاع يقول « غير موجود » وعندما يكون فى البيت ويرد يتحدث ثم يضع السماعة ويقول : « آسف ياخديجة لدى عمل ، لابد أن اذهب ! » حتى الأجازات القصيرة يغزوها اصدقاؤه وزوجاتهم اللاتى لا يخفين اعجابهن به ويحيطون به كالذباب . «تعالى ياولد خفض حرارة هذا السيشوار سيحرق راسى ! » قلت له ياكمال : الأمور هكذا لم تعد محتملة . لقد قضيت السنوات الاخيرة انتظر ، انتظر قدومك للغداء ، أنتظر قدومك للعشاء ، انتظر عودتك فى الليل متاخرا .. فقط انتظر ! .. قال « سامحينى ياخديجة ، لم اقصد ابدا الا سعادتك » ووعد ان نذهب معا لقضاء اجازة « فى الاسكندرية ؟ » « اجازة فى لبنان ،

هديتى لك بمناسبة عيد ميلادك الثلاثين » « ولكنى لا اريد ان ابلغ الثلاثين ! » رفعت المجففة عن شعرى وتحسسته كان قد جف تماما نقمت وجلست أمام المرآة لكى يصفف لى الشاب شعرى . هتف احد أصدقاء كمال حين عرف ان لى ثلاثة اولاد « لا اصدق ! » ضحكت وقلت « عليك ان تصدق ! » القيت نظرة اخيرة على المرآة ، كان الشاب قد صفف لى شعرى بشكل جميل ، شكرته وغادرت المحل وانا افكر اننى ابدو حتى وانا على ابواب الثلاثين صغيرة وجميلة .

مساء الخميس كنا ننتظر ضيوفا على العشاء رتبت كل شىء قبلها بيومين ، اعطيت قائمة الطعام للطباخ والمال اللازم للشراء . اوصيت على زهور ، أخرجت الفضية واكواب « الكريستال » وطقم الاطباق « الليموج » الفرنسى .

الخميس عصرا لم انم بل ذهبت الى الحلاق ، صففت شعرى وعدت . دخلت المطبخ وتأكدت من سير الأمور فيه . كان الطباخ ــ كعادته ايام الولائم ــ قد احضر شابين اسمرين لمساعدته . وكان ثلاثتهم منهمكين فى العمل وسط البخار المنبعث من الحلل والصوانى، فوق الموقد وفى داخله .

تركت المطبخ . وذهبت الى حجرة الاولاد . كانت زينب وسوسن جالستين كل الى مكتبها تؤديان واجبهما المدرسى اما سعد فكان منهمكا فى اللعب بقطاره الكهربائى . سالت البنتين متى تنتهيان فاجابت زينب أن امامها نصف ساعة اخرى . أما سوسن فاعلنت تذمرها من الواجبات التى لا معنى لها سوى تعذيب التلاميذ « ويا ماما عندما اكبر ... » قاطعتهـا وطلبت منها أن تكف عن « الفلسفة » وتكمل واجبها . واكدت على زينب أن تغسل لسعد يديه وفمه بعد العشاء وأن تلبسه البيجامة وتضعه فى السرير .

كالمعتاد وصل كمال متاخرا وتمتم معتذرا وهرول ليغتسل ويغير ملابسه ثم امتلأ البيت بالضيوف وكانوا جميعا من اصدقاء كمال وزوجاتهم .

للسهرات فى بيتنا مسارها المحدد . حتى وأن جلس الضيوف متناثرين ، تلقائيا وبعد وقت قصير ينفصل الرجال ويتحدثون معا فى الموضوعين الاثيرين لديهم : الطب والسياسة . اما النساء فيختلين ليتهامسن بآخر الاخبار : « فلان يرافق فلانة ». « زوجة الدكتور علان طلبت الطلاق من زوجها عندما عرفت بأمر زوجته

الأخرى » ، « فلانة مهتمة بفلان وتتبعه كظله » . يتداخل كلامهن عن الناس مع آخر الطرائف والنوادر الصادرة عن أولادهن . والتى تنم دائما عن ذكاء الأولاد وتميزهم ، يتفاخرون بأولادهن كما يتفاخرون برحلاتهن الاوروبية وما حملته من مشتريات واحيانا يجنح الحديث الى الشكوى من الخادمات اللئيمات .

ولم اكن اجد متعة شخصية فى النميمة ولا فى الكلام عن عبقرية أولادى أما الحديث عن الأسفار فلم يكن لدى ما أقوله لأشاركهن فيه ، كانت سفرتى الوحيدة هى تلك التى صحبت فيها كمال لقضاء شهر العسل قبل ثلاثة عشر عاما ، بعدها جاء الاولاد وكان كمال يسافر دائما بمفرده .

كنت اجد كلام الرجال اكثر طرافة واثارة للاهتمام ولكن كان على أن أجامل النساء واشاركهن الحديث . وكانت واجبات الضيافة بما تمليه على من قيام مستمر للاشراف على تقديم المشروبات واعداد الطعام تكسر شعورى بالملل وتنقذنى من الوقوع فى حرج عدم المشاركة .

طلبت المشروب فجاء أحد الشابين الاسمرين وكان الآن يرتدى بدلة سوداء ، دار بصينية من الفضة عليها كئوس عصير البرتقال . تبعته بعينى وعندما انتهى همست له بأن يبلغ الطباخ أن يبدأ فى غرف الطعام بعد ربع ساعة .

كانوا جميعا الآن يرشفون عصير البرتقال وهم ينصتون لحديث كمال عن رحلته الى امريكا .

ـ انها حقيقة رحلة العمر ، كل شىء ، كل شىء فى أمريكا مبهر من ناطحات السحاب الى الجراجات متعددة الطوابق تحت الأرض . ولكن كل هذا فى كفة ومستشفى الدكتور سالينجر فى كفة .

قلت وانا اضحك :

ـ منذ عودته وهو لا يتحدث ولا يفكر ولا يحلم الا فى هذا المستشفى ويريد ان يبيع الأرض التى ورثها عن أبيه ليشترى قطعة ارض للبناء هنا فى القاهرة ، اليس هذا تهورا يادكتور سالم ؟ .

قال الدكتور سالم :

ـ ياكمال ، بع ارض أبيك ومجوهرات زوجتك واضف اليهما مدخرات العمر وابن المستشفى . عليه وعمره وجهزه بالاجهزة والاثاث والمرضى والممرضات فيأتى عبد الناصر ويأخذها كلها على الجاهز !

لو ان والد كمال ، رحمه الله ، كان معنا لوجد فى الحديث موضوعه المفضل . كان يحب الجلوس مع الدكتور سالم يمضيان الوقت فى انتقاد عبد الناصر وسياساته . يبدآن همسا ثم يعلو صوتهما وهما يسبانه ويدعوان عليه . كان عمى صفوت يعد الايام فى انتظار الخلاص منه يسأل الدكتور سالم « مارأيك يادكتور ، ألم يقصر عمره ؟ » فيقول الدكتور « ربنا ياصفوت بك أرى ان عمره قصر ! » فيقول عمى صفوت « هل تقوم عليه ثورة ؟ » فيبتسم الدكتور سالم وهو يقول « وان لم تقم ربنا كريم يأخذه ويخلصنا منه ! » كان عمى صفوت يعد الايام ولكن المسكين توفى ومازال عبدالناصر على حاله قويا ومهيمنا !

قمت لالقى نظرة على المائدة قبل أن أدعو الضيوف للجلوس . المائدة ممتدة بالأطعمة المتنوعة : الفطائر المحشوة باللحم المفروم ، محشى ورق العنب ، البامية المطبوخة باللحم الضان ، السلطات : السلطة البلدية ، سلطة « بابا غنوج ، سلطة الزبادى ، وسلطة السمك بالمايونيز ، اللحوم : شرائح اللحم البقرى المزين بالخس والطماطم وارباع الدجاج المحمر تحيط بها حبات البازلة الخضراء ومكعبات الجزر الأصفر . اما أطباق الغرف والشوك والسكاكين والملاعق والفوط البيضاء المنشاة فصفت بنظام على « البوفيه » الصغير كما صفت الاطباق الصغيرة مع الشوك والسكاكين والملاعق الصغيرة المخصصة لأكل الفواكه والحلوى بجوار سلة ضخمة تحمل ثمار الخريف : حبات المانجو الخضراء والجوافة عاجية اللون والبلح الزغلول الاحمر . وبحذاء السلة وضعت ثلاثة اطباق كبيرة من الفضة فى أولها كنافة وفى ثانيها بقلاوة وفى ثالثها بسبوسة .

درت بعينى فى المكان ، تأكدت من أن كل شىء كما يجب ويليق . وكان الشبان الأسمران يقفان كل فى ركن استعدادا لخدمة الضيوف ازحت الستار الفاصل بين حجرة الطعام والصالون قائلة وأنا أبتسم: تفضلوا !.

شيء ما كان بيدى ، أقبض عليه ، افتح قبضتى فجأة فلا اجده . ابكى ، ابحث فى كل مكان . هل سرق ؟ من سرقه ؟ هل سقط منى ؟ هل تسرب من اصابعى وأنا فى غفلة ؟ ومتى تسرب ؟ أستيقظ من نومى فأجد الدموع على وجنتى وانخطافة فى قلبى « اللهم اجعله خيرا ! » انه كابوس ، مجرد كابوس ولكنه يتكرر . أذهب لزيارة امى وانتظر عودة أبى من عمله حتى اراه بنفسى واطمئن . آخذ الاولاد الى الطبيب ليفحصهم فيؤكد لى ان صحتهم ممتازة . ولكن الحلم يتكرر احدث كمال فى الامر فيسالنى : « هل يضايقك شيء ؟ » « لا يضايقنى شيء ! » ينصحنى الا أسرف فى الأكل على العشاء وان آخذ حماما دافئا قبل النوم .

يوقظنى كمال من نومى . اسمعه يقول :

ـ خديجة ماذا جرى ، تبكين وانت نائمة ؟

استوى جالسة واساله :

ـ كمال ، هل تحب امرأة اخرى ؟

يقول ضاحكا :

ـ هل الجنون يبدأ بالاحلام ؟!

ما الذى كان فى يدى ؟ ما الذى يمكن أن يتسرب من بين الأصابع كالماء ؟ اسأل نفسى فينادينى سعد ويطلب منى أن اضعه فى الفراش ويلح أن اتمدد بجواره حتى ينام فألبى له طلبه . احيطه بذراعى واشعر بجسده الدافىء على صدرى . يستغرق الولد فى النوم . اسمع انفاسه المنتظمة وأرى حبات العرق على جبينه اقول لنفسى اننى سأراه طبيباً عظيما يملأ الدنيا بنجاحه وضحكاته . اطبع قبلة على وجهه وانتزع نفسى من الفراش .

اصحو مبكرة على غير العادة وأعد للأولاد الافطار قبل ذهابهم الى المدرسة . اصحبهم حتى الباب وأودعهم كأنهم مسافرون وأنتظر عودتهم بلهفة وقلق . كمال ينصحنى الا أترك نفسى للأوهام : « انه مجرد حلم وقد تكونين مرهقة » يقترح أن أسافر الى الاسكندرية

مع الاولاد ما ان ينتهوا من الدراسة « سأستأجر لكم بيتا هنـــاك تمضون فيه طوال اشهر الصيف » الصغار سعداء بالفكرة . بعد الامتحانات يحملنا كمال بسيارته الى الاسكندرية ويقضي معنـــا هناك يوما واحدا وفى فجر اليوم التالى يغادرنا الى القاهرة .

البيت الذى استأجره لنا كمال يقع فى شارع جانبى هادىء لا يبعد كثيرا عن شاطىء البحر وهو بيت من طابق واحد وله شرفة واسعة ويحيط به سياج تغطيه شجيرات الياسمين يقوم على خدمتنا شاب يشترى المطلوب من السوق قبل مجيئه فى الصباح ثم يأتى وينظف البيت وبعد الغداء يذهب . يستيقظ الاولاد مبكـــرين وينتظرون حتى أستيقظ ، نتناول افطارنا معا ثم نذهب الى البحر. اتركهم يسبحون ويلعبون الكرة ويبنون قصورا فى الرمال واجلس فى شرفة مقهى الشاطىء احتسى القهوة وادخن واتصفح المجــلات واراقب زرقة البحر الممتدة والأمواج وهى تتعاقب ، تعلو وترتطم بالاحجار المكعبة الضخمة التى تحول بينها وبين الشاطىء . أدخن واراقب الرذاذ المتطاير والزبد وانحسار الموج وتملأ رائحة البحـر انفى وتختلط برائحة القهوة التى أحتسيها .

فى الثانية ظهرا نعود الى البيت نتناول غداءنا ثم نســـتريح قليلا وفى العصر نتمشى على الكورنيش . وعندما نعود نتناول عشاءنا فى الشرفة ثم يذهب الاولاد لينـــاموا وابقى انا أدخن حتى يغلبنى النعاس فانام . الاولاد سعداء يأكلون كالذئاب ويستمتعون بالبحـر والشمس ورمال الشاطىء ويقضون الأمسيات فى الشرفة يضحكون بسبب وبلا سبب . يتبادلون النكت والحكايات ويتفننون فى ابتكـار الالعاب والتسالى . سوسن تقلد مصطفى كامل فى وقفته وحـركة ذراعه وخطابه وتكرر بحسرة « نسيت أن آتى بطربوش جدى صفوت من القاهرة ، حمارة ! » ورغم غياب الطربوش كانت سوسن تقـوم بدورها المفضل كل ليلة فأضحك وأنا أراها تخلط الكلمات المأثورة للزعيم بكلام من عندها طفولى تلقيه بصوت عال ولهجة خطابية . أقول لسعد : « وانت ياسعد ماذا تريد أن تكون عندما تكبر ؟ » فيجيب بجدية « عسكرى مرور » فأضحك « ولماذا عسكرى مرور؟» « لكى أنفخ فى الصفارة فلا تقولوا اسكت وجعت دماغنـــا !. » فأقول له دون أن اضحك هذه المرة أنه سوف يكون طبيبــا كبيرا كأبيه . وأسأل « وأنت يازينب ؟ » فلا تمهلها سوسن : « زينب

اختي ستكون اما حليمة ورحيمة وستملأ عليك البيت بالأحفاد ... ستخلف طفلا كل تسعة أشهر فيكون فى بطنها واحد وعلى صدرها واحد وفى يدها واحد وفى ذيلها واحد ، وواحد على السرير وواحد على الشجرة وفى الحضانة واحد وفى المدرسة واحد وفى الجامعة .. » تقاطعها زينب محتجة : « والله انك سخيفة ! » وتجيب سوسن ساخرة : « فعلا لقد اخطأت ، تصورت زينب حليمة مع الصغار ، وهاهى لا تحتملنى مع انى اصغر منها ... اقول لكم نكتة ؟ » وتنقل سوسن الحديث الى مساحة اخرى من الهزل فيضحكون واضحك ثم يقولون « تصبحين على خير ياماما » ويذهبون للنوم .

ابقى فى الشرفة وحدى ويغلب الصمت على المكان يؤكده صوت انكسار الموج على الصخور الهائلة وصرير حشرة ليلية ... لا شىء ... يتقدم الليل .. ما الذى يتسرب من بين اصابع اليدين كأنه الماء ؟ !

تمر الايام تجرى تقطر فى ذيلها الاسابيع والشهور . ولم تكن الشعرة البيضاء فى مفرقى التى فاجأتنى ونزعتها هى وحدها التى دفعت بالفكرة الى خاطرى ولكنهم الاولاد الذين اراهم يكبرون كل ساعة . قالت عمتى كريمة عندما جاءت من البلد لزيارتنا معلقة على جسد زينب النامى « لقد خرطها خراط البنات » وضحكت.نظرت الى زينب فأدهشنى تكور ثدييها واستدارة ردفيها ، رأيتها امرأة صغيرة أمام عينى ، هكذا بسرعة ! اجتاحنى شعور كأنه قلق أو رهبة او ضيق أو ربما خوف معجون بفرح . لا يكبر جسد سوسن بنفس السرعة عقلها هو الذى يكبر وعنادها انها عنيدة صاخبة متمردة ومتبرمة بداع وبلا داع قالت لأبيها انها تريد دراجة فأجابها باستغراب: « وأين تركبينها ؟ مثل الناس ، فى الشارع ! » فقال لها أبوها انها بلا عقل : « اننا نسكن فى وسط المدينة وسيل السيارات لا ينقطع فهل تركبين دراجتك فى ميدان مصطفى كامل أم فى شارع قصر النيل أم تتنزهين بها فى ميدان العتبة ؟! قالت « اذن اشتركوا لنا فى ناد ! » .

تلقف منها سعد وزينب الفكرة وأخذا يلحان معها حتى استجاب ابوهم لطلبهم .

أيام العطلات أخذ الاولاد الى النادى ، تلتقى زينب بصديقاتها وتركب سوسن دراجتها ويلعب سعد فى حديقة الاطفال اما انا فأجلس وحدى أو مع اخرين عندما يصحبنا كمال يصبح اليوم مختلفا نتمشى معا ، نتحدث ، نحتسى القهوة وندخن ونضحك ، اشعر بالسعادة ولكن كمال نادرا ما يأتى معنا .

فى النادى عدد كبير من زوجات الاطباء زملاء كمال . عندما يلمحننى يأتين نشرب قهوتنا معا . يتحدثن عن أولادهن ومتاعب الخادمات والموضات الجديدة فى الملابس ويثرثرن بآخر الشائعات حول ازواج الاخريات ، يثرثرن بلا توقف وأعجب من قدرتهن الفائقة على الكلام المتصل . انصت وابتسم أحيانا أعلق ولكنى لا أجد شيئا

ذا بال أقوله وكثيرا ما أتساءل كيف يحتفظ المرء بقدرته على الثرثرة بعد تجاوزه سنوات الطفولة • ولكنني لم أكن أضيق بحديثهن فلولاه لمرت على ساعات ثقيلة أجلس وحدى أنتظر أن ينتهى الاولاد من اللعب •

كان يوما خريفيا دافئا وكنت أجلس وحدى عندما سمعته يهتف باسمى ، أدرت رأسى ولم أتعرف عليه • كان فى الوجه شيء أليف ، الابتسامة ربما لكنني لم أعرفه الا عندما قال اسمه انه مجدى ، الولد الصغير الذى كان يشاركنى اللعب مع أخى أحمد لكنه لم يعد ولدا بل رجلا ، شاب مربع مفتول العضلات يظهر شعر صدره الاسود الكثيف من فتحة قميصه . أسمر له شارب كث ويلبس نظارة طبية ويتحدث بصوت خشن ، صوت رجل .

جلس مجدى وطلبنا القهوة وضحكنا طويلا ونحن نسترجع ذكريات طفولتنا والخناقات اليومية آلتى كانت تنشأ بيننا . قال وهو يضحك « عندما كنا نختلف تتركينا معلنة أنك لن تلعبى معنا طول حياتك ونحن أيضا نعلن أننا مخاصمينك والى الابد » • قلت وأنا أضحك : « وبعد ربع ساعة نختلق الاسباب لكى نتصالح ! » •

صرنا نلتقى ، أنا ومجدى ، نجدد صداقة الطفولة ، نثرثر ونتواصل ويقول مازحا : « لكن الغريب يا خديجة أنك لا تتشاجرين معى ••• فكيف ؟! » فأضحك « لم أعد أتشاجر مع أحد ! » يضحك ويقول « غريبة ! » •

سألنى عن أحمد فحكيت : « سافر للدراسة فى أمريكا ثم قرر الاقامة هناك وهو الان متزوج وله بنتان . لو تسألنى ان كان سعيدا سأقول لك انى لا أدرى فهو بعيد ، لا يكتب الا بطاقة فى المناسبات ويتصل تليفونيا بأبى وأمى مرة فى السنة • وهما يعيشان على أمل عودته وكأن رجوعه الى البيت سيعيد الى عمرهما شبابه ، لو رأيت أبى الان فلن تصدق عينيك » .

جاءنى مجدى بلفافة كبيرة وقال وهو يفض الغلاف انها صورة اشتراها قبل عشر سنوات • كانت الصورة لامرأة من التاريخ القديم لها وجه مستطيل وأنف مستقيم وشفتان بهما شيء من امتلاء وعيناها سوداوان لوزيتان مسحوبتان بشكل ملحوظ من طرفيهما • وكان قرطها الطويل وعقدها متعدد الافرع يؤكدان جمال عنق المرأة وطوله • وكأن يعلو رأسها تاج مرصع •

ــ ملكة ؟

ـ ملكة سومرية قديمة ٠
ـ الا تعتقدين أنها تشبهك ؟
ـ لا ، لا ارى أى شبه .
قال مجدى بعناد :
ـ بلى انها تشبهك ، أنت أحلى قليلا ولكنها تشبهك !
حدثت أبي وأمي عن لقائي بمجدى وحدثت كمال أيضا ورتبت أن نتناول جميعا الغداء معا يوم جمعة بالنادى بعدها دعانا الى بيته ولما ذهبنا فاجأني تميز المكان ٠ كانت شقة صغيرة ولكنها مؤثثة بما ينم عن ذوق رفيع فأثاثها من الطراز العربى المصنوع من الخشب المطعم بالصدف وأبسطتها من نسيج الانوال الشعبية زاهية الالوان والنباتات المنزلية الخضراء تضفى على المكان خصوصية وجمالا ٠ وكانت صورة الملكة السومرية التى قال أنها تشبهنى تحتل مكانا فى مكتبة كبيرة تتصدر الحجرة التى جلسنا فيها .
أكلنا وشربنا وتحدثنا وضحكنا وتربع الاولاد على الارض يتابعون الحديث فى شغف وعندما غادرنا قال كمال ان مجدى شاب لطيف وذكى و « لا تنس يا خديجة ان تدعيه الى بيتنا فى أول وليمة قادمة » وقالت أمى وهى تدب بخطوتها الثقيلة على السلم « ذكرنا بأيام زمان التى لا تعوض » ٠ وقال أبى وهو يمسك بذراع كمال يستند اليه : « كان ينقصنا أحمد ، عندما يرجع بالسلامة سأدعو مجدى الى بيتنا ونجدد هذه السهرة الجميلة » ٠
أصبح مجدى صديقا حميما يلجأ الى يطلب مشورتى فى كل صغيرة وكبيرة ٠ انه وحيد وغير مستقر وأنا كأخته ٠
حلمت أننى أزوره فى بيته الذى كان جميلا كما فى الواقع ، أجمل ربما مما فى الواقع : زرع أخضر وأرابيسك ٠ قال انه يريدنى قلت أن ذلك مستحيل ولكنه عندما مد يديه الى تعانقنا وكان شىء ما يهوى فى داخلى من حلقى الى صدرى الى معدتى الى أسفل بطنى ، شىء ما كأنه روحى . استيقظت من نومى فزعة وأنا اكرر ان ذلك غير ممكن وغير صحيح لانه أخى ولا أحد يقبل أخاه بهذا الشكل لا فى الحقيقة ولا فى الاحلام ولكن الحلم ظل يتعقبنى كأمر واقع لا أملك انكاره وكنت أتساءل : « هل يريدنى مجدى ؟ وهل أحسست برغبته بشكل تلقائى لم أعيه ؟ » ولكننى امرأة متزوجة وأحب زوجى وأولادى وهو صديق وليس سوى صديق فما الذى يريده منى ؟!
لم أذهب الى النادى لاسبوعين متتاليين وعندما ذهبت رأيته

فسأل : « ما بك ؟ » قلت : « لا شيء ! » قال : « وجهك ممتقع » قلت : « ألم أقل لك انني كنت متوعكة » قال : « اعتنى بنفسك أم تريدينني أن أعتنى أنا بك ؟! » وضحك فماذا قصد بهذا الكلام . ناديت على الاولاد وغادرت الى البيت .

وجدت خطابا غراميا فى دولاب زينب . كنت دائما أتوقع أن أجد رسالة من هذا النوع بين ملابس كمال . أبحث أحيانا فى جيب سترته ، بين قمصانه ، فى حقيبته ولا أجد شيئا . ولكنى اليوم وجدت خطابا موجها لابنتي زينب من شاب يقول لها أنه يحبها ، يحب عينيها وشعرها واسمها وكل شيء فيها « ماشاء الله ! » وأنا كالطرطور لا أعرف من أمر ابنتى شيئا !!

ما أن عادت من المدرسة حتى أخذتها الى غرفتي وأغلقت الباب . واجهتها بالرسالة ، ضربتها وشتمتها وصرخت فيها قائلة : ان البنت التى لا تحترم نفسها لا يحترمها أحد . قلت لو تكرر هذا الامر فأنا أنذرك سأحبسك فى البيت ، لا مدرسة ولا نادى حتى باب البيت لن تريه بعينيك !

لم تظهر زينب على مائدة الغداء .. سأل كمال سوسن : « أين أختك ؟ » أجابته : « عندها صداع ، أخذت مسكن ونامت » ونظرت الى وشفتاها مزمومتان . هذه البنت وقحة !

فى المساء دخلت حجرة البنتين فوجدت زينب تبكى . زجرتها وهددتها بالضرب ان لم تكف « ويكفى دلع وقلة أدب ! » « قالت سوسن انها تريد أن تتحدث معى « على انفراد ! » عجيب أمر هذه البنت . لحقتنى الى غرفة نومي وأغلقت الباب .

ـ ما فعلتيه بزينب غلط .

ـ لا تتدخلى فيما لا يعنيك . أنا أمها واربيها كما أرى مناسبا . لقد أخطأت ومن حقي أن أعاقبها !

ـ ماذا فعلت لكى تعاقبيها بالضرب ؟!

ـ ليس هذا من شأنك ، هى تعرف وهذا يكفى !

ـ انا ايضا اعرف . لم يكن سؤالى استفهاما ، كان احتجاجا !. شاب كتب لها أحبك وهى حتى لا تعرفه فتهينيها كأنها أجرمت.

كان ذلك أكثر مما يحتمل الانسان . كظمت غيظى وتمالكت نفسى بما يكفى ولكنى لم أستطع التحمل لطمتها على خدها وانا اصرخ فيها:

ـ ما شاء الله ! هل تعطيننى دروسا فى التربية ؟! انا الأم ، أنا آمر وأنا أنهى وانتم تطيعون فقط وبلا نقاش .

قالت وهى تترك الحجرة :

ـ أنت مخطئة ياماما !

أغلقت باب حجرة نومى بالمفتاح • كنت حزينة وغاضبة من تهور زينب وسلوكها غير المسئول . من تبجح سوسن ووقاحتها . ماذا أفعل لو أفلتت البنتان ولم أستطع لجمهما ؟ ستكون مصيبة ، سيقول الناس فشلت خديجة فى تربية بنتيها وكمال أيضا سيقول نفس الشىء رغم أنه لا يساعدنى وعندما أشكو له يقول انها مسئوليتى وان واجبه أن يعمل خارج البيت ليوفر لنا الحياة الكريمة •

أخرجت منديلا مطويا من درج الخزانة الصغيرة ومسحت دموعى ثم تمخطت • جلست على المقعد المقابل للسرير وأشعلت سيجارة • من يدرى ، ربما كانت هذه الرسالة ناقوسا صغيرا ينبهنى الى أن البنت كبرت وأن على أن أكون أكثر حرصا • لم تعد زينب طفلة بل أصبحت فتاة يهواها الشباب ويكتبون لها خطابات الغرام . هل حان وقت التفكير فى تزويجها ؟ تمخطت وأشعلت سيجارة أخرى • ليست زينب هى المشكلة ، وقد تكون أخطأت ولكنها ترتدع وتطيع أما سوسن فياخوفى من سوسن •• كانت تنظر الى بصفاقة ، انها لا تخافنى ، ولا تخاف أحدا •• فما العمل فى بنت لا تخاف أحدا ؟!

سألنى كمال :

ـ ما بك ؟

ـ لا شىء •

ـ كنت تبكين •

ـ سوسن قليلة الادب ، كنت أوبخها فردت على بشكل لا يليق •

ـ وبخيها كما يحلو لك ولكن لا داعى لان تنتهى توبيخك بالبكاء !

لم أقل له شيئا عن موضوع زينب لكنى حكيت الحكاية كلها لمجدى عندما التقيت به قال :

ـ لا تظلمى البنت قد يكون الشاب أعجب بها عن بعد وارسل لها هذه الرسالة • كلنا فعلنا ذلك فى مراهقتنا •

ـ أنت كنت تفعل ذلك ؟

ـ طبعا !

ـ كلام مجرد كلام تقوله لتخفف من حدة غضبى على البنت .

ـ والله انى كتبت عشرات الرسائل الغرامية لبنات لم أكن اعرف عنهن أكثر من الاسم الاول •• أرى بنت الجيران فى الشرفة أو فى الشارع عائدة من المدرسة فاقع فى حبها واقضى الليل ساهرا اتغزل

فى شعرها وعينيها على الورق ·

ـ ولكنك لم ترسل لى أبدا رسائل من هذا النوع ، الم أكن أنا بنت الجيران ؟آ

ضحكت أما هو فلم يضحك · وعاد بالحديث الى موضـوع زينب ونصحنى أن اتحدث معها بهدوء فقلت له اننى لن أتمالك نفسى لانى غاضبة « لم لا تتحدث انت معها ؟ » فحدثها .

بعدها قال :

ـ ظلمت البنت يا خديجة ، كما توقعت.، الشاب أعجب بها وهى لا تعرفه · لقد أرفق بالخطاب صورة له لكى تميزه عن الشباب الاخرين مجدى صديق أصيل وهو يساعدنى فى تربية الاولاد · محظوظة من تتزوجه ·

ـ لماذا لا تتزوج يا مجدى ؟

ـ لو تجدين لى عروسة اتزوج !.

ـ هل تمزح ؟

ـ أبدا ·· هذه الفتاة ذات الشعر الاسود التى ألعب معها « بنج بونج » انها لطيفة جدا فكرت أكثر من مرة فى امكانية ··

ـ ولكنها صغيرة ، انها فى عمر زينب ..

ـ لا أدرى ، ربما ·

قلت وأنا أضحك مداراة لشعور مفاجىء بالحرج ·

ـ اذا كانت فى سن زينب ·

ـ تكون أيضا فى سن سوسن ، ألم تقولى أن الفرق بينهما أقـل من سنتين ·

ـ لم أقصد ...

ـ خديجة هل تعطينى سوسن ، لو قلت نعم أنتظر ·

ـ أعطيك زينب ·

ـ ولماذا لا تعطينى سوسن ؟!

ـ زينب أطيب وأحلى وهى الاكبر

ـ ولكن سوسن هى التى تشبهك ·

ـ سوسن لا تشبهنى ، انها عنيدة ولا تخاف احدا .

طلب مجدى يد زينب من أبيها فوافق ولكنه اشترط الا يتم اعلان

الخطبة رسميا الا عندما تتم زينب عامها الخـــامس عشر وفاتحت أنا زينب في الامر فاستغربته ثم وافقت ولكنها لم تبد حماسا الا عنـدما تحدث مجدى معها · سألتها « ماذا قال لك هـــذا العريس الماكر ؟ » لتدخل مجدى قائلا : « انه سر بيننا » ثم وهو يضحك « ماذا جـرى يا خديجة ، هل بدأت تلعبين دور الحماة بهذه السرعة . أرجوك الا تتدخلي بيني وبين زوجتي ! » واستمر يضحك وضحكت زينب وضحكت أنا أيضا رغم شعور مفاجيء بعدم الارتياح .

فرحتي بخطبة مجدى وزينب بلا حدود · بامكاني الآن الاطمئنان على البنت · سيحميها مجدى ويصونها ويرعاها ويشكلها كما يحلو له وسيسمح لها أن تنمو وتزدهر تماما كتلك النباتات المنزلية الخضراء البديعة التي تملأ بيته .

اصطحبت زينب الى مدام لاورا لتحيك لها ثوبا لحفل الخطوبة · قلبت في عشرات المجلات حتى أستقر رأيي على الثوب المناسب وأخذت مدام لاورا المقاسات وقمت أنا بشراء القماش ·
وفى اليوم المحدد للقياس جلست على المقعد الوثير المواجه للمرايا الكبيرة فى بيت مدام لاورا أتأمل زينب فى الثوب الذى تقيسه مأخوذة وفخورة وبى شيء من وجل · هذه البنت الجميلة ابنتي · طويلة وبيضاء وبضة كأهل أبيها ولكن شعرها وعينيها سود مثلى « أريد النحر مفتوحا اكثر من ذلك » أدارت مدام لاورا مقصها الكبير فى القماش ووسعت فتحة النحر · قلت « وقصرى الطول قليلا » ركعت الخياطة على ركبتها وأخذت تثنى ذيل الفستان بالدبابيس · سألت « هــذا الطــول مناسب ؟ » قمت من على المقعد وابتعدت قليلا قلت « لا ، هــذا اقصر مما يجب ، أريده بين هذا الطول والطول السابق » ·

كان الثوب مشدودا على جسد زينب حتى الخصر يبرز امتــلاء صدرها ونحول خصرها ثم ينزل بعد ذلك واسعا وفضفاضــا بكسرات سخية · قلت للخياطة : « سلمت يداك · الخياطة الماهرة تظهر جودة القماش » فضحكت للاطراء وقالت أن القالب غالب ·

مقص مدام لاورا لا يعلى عليه ، وأناملها تبدع وتجيــد · ولا شيء فى مظهرها ينم عن قدرتها الخاصة فهى امــرأة مميزة القصر ممتلئــة

الصدر والردفين تلبس ثوبا منزليا بسيطا وتلم شعرها الرمادى فى شبكة من خيوط سوداء دقيقة وتخلط العربية بالفرنسية والايطالية من يلقها فى الشارع دون سابق معرفة يظنها بائعة يونانية فى محـل للخردوات ولكنها مدام لاورا أمهر خياطة فى البلد لا يذهب اليها الا صاحبات الذوق الرفيع والجيب الممتلىء !

ساعدت مدام لاورا زينب على خلع الثوب المثبت بعشرات الدبابيس واتفقت معها على موعد القياس الثانى ثم موعد الاستلام قبل الخطبـة بثلاثة أيام . « اذن سنأتى لاخذ الفستان بعد ظهر الاثنين ٥ يونية » أكدت عليها ونحن نغادر .

- ٦ -

زينب تبكي بلا انقطاع وتكرر أن حظها سيىء وأنا أهون عليها مؤكدة ان الامر عابر وما أن تمر هذه الايام حتى أقيم لك حفل خطبة اكبر وافخم من الذى الغى .

كان الراديو « الزينيت » الكبير الذى ابقيناه مفتوحا يواصل اذاعة البيانات العسكرية تعقبها المارشات واغانى عبد الحليم حافظ لم يعود للبيانات مرة أخرى ولا تكاد صفارات الانذار المتصلة التى تعلن الامان تدق حتى تعلن الصفارات المتقاطعة عن غارة جوية جديدة .

منذ امس الأول لم يعد كمال الى البيت اتصل بى بعد ظهر الاثنين من القصر العينى وقال انه قد يذهب مع زملاء آخرين الى السويس وانتقل ابى وامى للاقامة معنا . والليلة كما فى الليلتين السابقتين كانت الساعات تمر ببطء غريب يحيط بنا ظلام دامس فاضواء البيت مطفأة وكذلك أضواء الشارع الذى توقفت فيه كل حركة وسكنت الاصوات الا من تحذير شاب أو آخر من شباب الدفاع المدنى يصيح : « طفى النور ... » يتقدم الليل موحشا وصامتا الا من صوت المذياع واضحا حين تضبط سوسن مؤشره على اذاعة القاهرة أو صوت العرب ومذبذبا تعتريه الخرفشة حين تضبطه على الاذاعة البريطانية أو محطة اسرائيل فتلصق اذنها بالمذياع تنصت ثم تعيد ما سمعته بصوت عال على جدها لكى يتمكن من فهم ما تقول .

ابى وامى ينامان فى حجرة الاولاد ومعهما سعد . اما زينب وسوسن فتنامان بجوارى ، والليلة بعد أن دخلنا الى الفراش ونمنا استيقظت من نومى على صوت بكاء مكتوم . أضأت المصباح الجانبى وأنا أفكر أن زينب بلهاء لا تزال تبكى على تأجيل خطبتها ولكنى وجدت زينب تغط فى نوم عميق وكانت سوسن هى التى تبكى

« ما بك ؟ » « لا شيء ! » حاولت ان اضمها الى صدرى ولكنها انكمشت بعيدا كحيوان نافر .

البيانات العسكرية تتحدث عن الانســحاب الى خط الدفاع الثانى ولم يكن اى منا يعرف أين يقع خط الدفاع هذا ولا معناه بالنسبة لسير الحرب . ولكن كان واضحا الآن ان الوضع سيىء بالنسبة لنا .

لم يعد كمال الى البيت منذ نشوب الحرب صباح الاثنين ورغم قلقى عليه الا اننى كنت اشد قلقا على سوسن فعيناها غائرتان اتسعتا حتى ابتلعتا ثلث وجهها تتحرك فى البيت غائبة وصامتة ولم تخرج عن صمتها الا عندما قال ابى ان عبد الناصر أضاع البلد وخربها وكان ما كان فقالت له انه رجل خرف ومن الأفضل ان يبقى لسانه فى فمه وكدت أوبخها على سوء سلوكها ولكنى لم أفعل ... البنت متعبة ، أشفق عليها .

الخميس ليلا عاد كمال فراح ابى يسأله : « أين خط الدفاع الثانى ، ما معنى قبول وقف اطلاق النار الآن ، هل انسحب الجيش المصرى من كل سيناء ، هل احتلها الإسرائيليون ؟. هل هناك جرحى كثيرون ؟ ما عدد القتلى ؟ » كان ابى يسأل ولا تأتيه اجابة على أسئلته فيسأل أسئلة اخرى ثم يعود الى الاسئلة الاولى .

قال كمال بصوت عال لكى يسمعه ابى : « انتهى يا عمى ، انتهى ، خسرنا الحرب ! » وقام وطلب منى أن أصنع له كوبا من الشاى « سأشربه فى غرفتى ! »

كانت ليلة ثقيلة وطويلة قضيتها فى الفراش مع كمال دون أن يغمض لنا جفن ولم يفتح اى منا فمه بكلمة كان احدنا نائم والآخر وحده هو المستيقظ . كان كمــال يتقلب كثيرا فى الفــراش ثم استقر على جانبه الأيمن فلم أعد ارى وجهه بعدها سمعته يبكى ، ينشج وينتحب بصوت مكبل ومكتوم فاجتاحنى فزع هائل ووجدت نفسى غير قادرة على أن افعل اى شيء ولا حتى ان أمد يدي وأربت على كتفه أو امسك بيده . كنت خائفة الى حد التخشب فى مكانى حتى صباح الجمعة .

جمعة حزينة فى البيت والشارع يتردد فيها صوت المقــرىء فتتأكد الوحشة ، وحشة المآتم الكبيرة ، لم تدر الخادمة بالبخور المخلوط بالمستكة والجبهان فهى لم تأت ولم يستحم الاولاد كالمعتاد. جلس سعد وزينب وأجمين ، أما سوسن فبقيت فى سريرها حتى

بعد الظهر ، كمال يدخن ويشرب القهوة ولا يكلم احدا وابى يثرثر بلا انقطاع وامى تحدجه بنظرات رادعة ولكنه يواصل حديثا لا يوله احد اهتماما . ثم جاء مجدى وشربنا شايا ثم قهوة ثم شايا ثم قهوة فى انتظار الثامنة مساء .

فى الثامنة ظهر عبد الناصر على التليفزيون قال اننا هزمنا فى المعركة ، سماها نكسة ، واعلن تنحيه عن رئاسة الجمهورية . انتهى الخطاب ، المذيع ينتحب وكمال ومجدى يحدقان امامهما ولا يقولان شيئا . ابى يبكى فتزجره امى . اسمع طرقة الباب ، « سوسن ! » انادى . اين ستذهب هذه المجنونة ؟ افتح الباب وانزل الى الشارع راكضة وراءها فاراها امامى تركض فى الشارع المهجور . انادى عليها ولكنها لا تستدير . اركض حتى الحق بها وامسك بذراعها « هل جننت .. الى اين تذهبين ؟! » اجرها جرا فى اتجاه البيت وهى تكرر بالحاح ، برجاء ، بتوسل « ارجوك ، ارجوك يا امى اتركينى ! » ولكنى اسحبها حتى اعود بها .

اجد زينب وسعد ومجدى وابى وامى واقفين على السلم . ابى يوبخ سوسن وامى تزجره وتقول له الا يتدخل . اسحب سوسن الى حجرتها وانا اقول : « عندما تتمين ٢١ سنة افعلى ما تشائين .. عندك ١٣ سنة تسمعى كلامى . انا ولية امرك . انا المسئولة عنك !. » طرقت الباب ورائى واغلقته عليها بالمفتاح. كان كمال جالسا امام التليفزيون المغلق يحدق فيه كأنه مفتوح ، لم يحرك ساكنا . هكذا هو ... ترك ابنته تركض فى الشوارع وهو جالس بلا حراك . كنت ما زلت الهث متقطعة الانفاس ، صدرى يعلو ويهبط من الركض والانفعال . قال ابى « ابنتك مجنونة ! » فلم أعلق ولكنى فكرت انها فعلا مجنونة ... هل تفعل فى نفسها شيئا ؟ فانتفضت من مكانى كالملدوغة وقمت لأطمئن . فتحت الباب فوجدتها جالسة على الارض تسند ظهرها الى السرير وتخفى وجهها بكفيها . هذه البنت مجنونة قد تؤذى نفسها ، قد تفتح النافذة وتقفز منها ، قد تدق راسها فى الحائط وتشجه ، هرولت الى المطبخ . واتيت بحبل غسيل وربطت الحبل فى عمود السرير وعقدته ثم لففته حول جذعها وخصرها مرة وثانية ثم ثالثة . نظرت الى وكأنها انتبهت فجاة وصرخت : « ماما ماذا تفعلين ؟ ! » . لم أجبها واتجهت الى باب الحجرة ولكنى قبل ان

أغادرها استدرت لأتأكد . كانت سوسن مقيدة تماما بالحبل الى رجل السرير الخشبية الضخمة لا تستطيع أن تتحرك ... مستحيل أن تؤذى نفسها ! اغلقت الباب وذهبت .

دخلت الى المطبخ لأصنع لنفسي فنجانا من القهوة . جاء سعد وقال : « ماما ، بابا وجدى ومجدى يريدون قهوة » ثم شب على أطراف أصابعه وأحاطني بذراعيه وقبلني فى كتفى وقال « ماما لا تبكى » فانتبهت لكونى أبكى . قبلت سعد ومسحت دموعى واكملت صنع القهوة ثم حملتها اليهم . لم أجدهم بالصالة ، كانوا بالشرفة وقال مجدى مفسرا : « يبدو ان هناك تجمهرا ، سمعنا جلبة واصواتا » .

صوت يقترب ، يعلو ويهبط ، يظهر ويختفى ، يدور ويقف كأنه آلة ضخمة او عجلات قطار او موج بحر بعيد .

ـ انها مظاهرة !

ـ وهل هذا وقت مظاهرات ؟!

ـ من يدرى لعلها مظاهرة ضد عبد الناصر ، ثورة يعنى ! .

نحدق فى العتمة ولكننا لا نرى شيئا ثم سمعنا : « تحيا مصر ... تحيا مصر » وهتف سعد وهو يشير بيده الى كتلة صغيرة بدت فى الشارع المواجه . الكتلة تكبر والأصوات تعلو . ليست مظاهرة واحدة فالأصوات تأتى من جهات متعددة . ثلاث كتل بشرية نراها الآن تتدفق الى الميدان حيث التمثال البرونزى . البشر يملئون الميدان الذى لا يتسع فيفيضون فى الشوارع ويعلو صوتهم مدويا يرج البنايات العالية التى كان سكانها مثلنا واقفين فى الشرفات يشاهدون . قال أبى :

ـ هذا الرجل داهية ، تنحى عن الحكم ثم أطلق الناس فى الشوارع لكى يقولوا له ارجع !

قال كمال :

ـ أشك !

قال مجدى :

ـ بصرف النظر عن الحقيقة ، الشيء المؤكد أنه أغرقنا وهو المسئول فلينتظر اذن حتى يجد لنا مخرجا .

همست زينب فى اذن مجدى . سألتها :

ـ ماذا تريدين ؟.

تلعثمت ثم قالت :

.. كنت اطلب منه ان يرجوك ان تسامحى سوسن وتفكى قيدها .

ـ لا تتدخلي فيما لا يخصك !

تتحرك الكتلة لتدخل الشارع الذى لا يسعها فتمتد مستطيلة المقدم باتجاه شارع الجمهورية .

ـ الى اين سيذهبون ؟.

ـ ربما الى ميدان عابدين أو الى مجلس الامة .

ـ وربما لا يقصدون مكانا محددا !.

كان الميدان الآن قد عاد خاليا تماما الا من تمثال مصطفى كامل ولكن الصوت بقى مسموعا وعاليا :

بالروح بالدم ... حانكمل المشوار .. بالروح بالدم .. نفديك يا مصر ...

قال سعد :

ـ اذن سوسن كانت تريد أن تمشى فى المظاهرة ؟

قلت :

ـ سوسن مجنونة !

وتركتهم واقفين فى الشرفة وذهبت لأطمئن عليها . أدرت المفتاح فى الباب ودخلت . كانت فى مكانها جالسة على الارض مقيدة فى رجل السرير تسند راسها الى ركبتها ولا تحرك ساكنا . اغلقت الباب وذهبت .

- ٧ -

اقمت لزينب حفل خطبة كبيرا ، تماما كما وعدتهـا . اكتظ البيت بالمدعوين وبدت زينب فى أبهى صورة : ينطق الثوب الوردى جمالها ويتلألأ الماس على نحرها وينزل شعرها الاسـود الكثيف متموجا وسخيا على كتفيها .

أروح واجىء ، ارحب بالضيوف وأشرف على تقديم الشربات والحلوى المصفوفة بعناية على صوانى كبيرة من الفضة واطمئن على سير الامور فى المطبخ حيث ثلاثة من الطباخين المهرة يعدون طعام العشاء .

ثم يلبس مجدى زينب خاتم الخطبة واسوارة من الماس فنصفق وتطلق الخادمات الزغاريد ويلتقط المصورون الصور قبلت العروسين ثم قلت : « مبروك يا كمال وعقبال سوسن وسعد » ، « مبروك يا خديجة » قالها وهو يميل على وجنتى ويقبلنى ولاحظت ان عينيه دامعتان وأن بوجهه شىء من شحوب .

ليس لدى دقيقة فراغ واحدة . لدى عمل كثير ومسئوليات كبيرة . أختار لزينب موديلات الفساتين من المجـلات الفرنسية والايطالية وأشترى الاقمشة واحملهـا الى الخياطين واوصى على مجلات للأثاث من المانيا والسويد لأنتقى منها ما ينفـذه صـانعو الاثاث فى دمياط . كالمعتاد كمال غائب كأن زينب ابنتى وحدى . يعمل طوال اليوم ويعود فى الليل مرهقا فلا يتبادل معى سـوى كلمات معدودة .

كان مجدى فى زيارتنا يوم الجمعة وكنا نجلس مجتمعين فى الصالون نتناول الشاى . أتيت بمجلات الاثاث لكى أعرض بعض ما اخترت على مجدى وزينب وكمال فاذا بمجدى يقول :

- ولكن أثاث بيتى جميل ولن نشترى اثاثا افضل منه فان

كانت زينب توافقنى نجرى تعديلات بسيطة ونحتفظ بالاثاث الحالى .. ما رأيك يا زينب ؟.

فاجأنى الكلام ووجدته لا يعقل .

ـ تقصد ألا نجهز زينب ؟.

ـ جهزى كما تريدين ولكن بالنسبة لاثاث غرف الجلوس والاكل والنوم . فلا داعى .

ـ وما الذى يتبقى اذن ؟.

ـ أشياء كثيرة ، المطبخ ، السجاد ، الثريات .

ـ هذه الاشياء على العريس .

ـ اذن سأشتريها .

ـ ونحن لا نشترى شيئا ؟!

تدخل كمال فى الحديث :

ـ ما رايك يا زينب ؟.

ـ لا امانع فى الاحتفاظ بالاثاث القديم ما دام مجدى يحبه . ما يقولونه سخف ولا علاقة له بالمنطق . أعلنت بحسم :

ـ زينب عروسة ولابد أن تدخل الى بيت يليق بها .

ـ الله يسامحك يا خديجة . هذا البيت كونته بنفسى قطعة قطعة واعتقد أنه جميل ويليق بزينب .

ـ وأنا أعتقد أنه لا يليق بها ، أو بنا !

موقف مجدى غريب والأغرب منه موقف كمال . لا ليس غريبا موقف كمال . هكذا كان دائما يخالفنى فيما أقول ويخذلنى فى المواقف التى أحتاج فيها مساعدته ، كيف تتزوج البنت فى بيت أثاثه قديم ؟! وماذا يقول الناس ؟! الدكتور كمال صفوت الجراح الكبير لم يجهز ابنته ، ابنته البكر ، فرحته الاولى ! ستكون فضيحة، سيقولون أخذوا المهر ولم يجهزوا البنت ! فى الليل قلت رأيى لكمال . قال :

ـ ليست المسألة شكلية يا خديجة وهما اللذان سيعيشان فى هذا البيت . وبالمناسبة شقة مجدى مفروشة بذوق جميل ولو تذكرين أول مرة زرناه قلت لى ان الاثاث جميل .

ـ لا أذكر ! وحتى لو قلت ذلك فكلامى تعليقا على شقة عازب ولكن شقة ابنتى أؤثثها كما يحلو لى ويليق بهـا ... ثم ماذا يقول الناس ؟ : أخذوا المهر ولم يقدموا شيئا !.

ـ اضربى المهر فى ثلاثة واشترى لها هدية ، لما لا تقدمى لهما

تذاكر سفر الى اوروبا لقضاء شهر العسل ؟.
كمال لا يتفهمنى ، انهى النقاش بشكل جارح وقال لى أن أترك الاولاد وشأنهم والا افسد حياتهم بتسلطى . لماذا يقول هذا الكلام وهل رآنى افسد حياة احد ؟ انا اربى له أولاده وافتح بيتى لكل من هب ودب من زملائه وهو غائب طوال اليوم ، يقول مشغول وعندما يكون نائما فى الفراش بجوارى يهملنى ولا يقربنى الا فى المناسبات . فمن الذى افسد حياة من ؟ ومجدى ؟ لماذا يتصرف بهذا الشكل الاحمق ؟ كان سلوكه سخيفا وعناده أسخف فلماذا ؟ وهل كان رقيقا معى لكى اعطيه البنت والآن بعد ان أعطيتها له يتململ ويتحكم ؟!
لم نعاود الحديث فى الموضـوع واعتبرت تعليقـه تراجعـا من جانب مجدى ... سنؤثث للبنت بيتا جديدا ولائقا ، هذا ماقررته. يطلب مجدى أن نعقد القران . قال « مرت على الخطبة ستة شهور . صارت زينب تعرفنى وصرت اعرفها واعتقد اننا نريد الآن الزواج مرة والى الأبد ! » وضحك . وافق كمال فكتبنا الكتاب فى حفل عائلى صغير وعلق كمال بعد ان ذهب المدعوون وآوينا الى حجرتنا « هكذا افضل ! » قلت : « الآن يخرجان ويدخلان ونحن مرتاحين لا يشغلنا انهما تأخرا أو لم يتأخرا ولا تعترض امي على كثرة لقـاءاته بزينب . مجـدى الآن زوج زينب على سنة الله ورسوله ! »
سأقيم لزينب حفل زفافهـا بالاسـكندرية قلت ذلك لكمال فاستغرب وسأل « وما الحكمة ؟ » قلت « ما دمنا قررنا أن يتم العرس فى الصيف فلنقيمه فى الاسكندرية ، فى « قصر المنتزه » لم يبد على كمال الحماس ولكنه لم يعترض قال « افعلى ما بدا لك ».
سيكون فرح زينب ومجدى حديث الأهل والاصدقاء لشهور وربما لسنوات . نستأجر قاعة الأفراح بقصر المنتزه حيث أعمدة المرمر وثريات الكريستال والأسقف المنقوشة بماء الذهب . هناك فى القصر ، حيث كان يقيم ملوك مصر تزف ابنتى الى مجدى فى ثوب بلا مثيل اشترى قماشه من فرنسا وتحيكه لها مدام لاورا ، تلبس الثوب الابيض وتضع على رأسها اكليل الزهور والطرحة وتزفها الراقصات على الدفوف وضوء المشاعل وتمتد الموائد فى البهو تحمل أطيب الطعام وبعد العشاء يكون الحفل فى حديقة القصر تحييه المغنيات والراقصات وتكون ليلة العمر بتصدرها مجدى

وزينب ويعرف الجميع أن خديجة عندما تنجز شيئا فهو دائما مدهش وبلا مثيل .

ولكن على زينب ان تتم عامها الاخير فى المدرسة أولا وهذا شرط أبيها ، أن تنتهى من امتحان الثانوية قبل الفرح . مجدى يساعدها فى دروسها ، مرات يأتى عندنا ومرات يأخذها الى بيته. فى الصباح تذهب الى المدرسة وفى المساء تلتقى به .

زينب هذه الأيام شاحبة الوجه ، مضطربة ، لاحظت ذلك فسألتها عما بها . قالت : « لا شيء » قد تكون أختلفت مع مجدى. هكذا الازواج دائما يسببون النكد للزوجات . لو قالت لى ، لو كان الحق معها سأوبخه يجب ان يعرف أن عليه مراعاة البنت فأنا لم اعطها له ليغضبها ويتسبب فى شحوب وجهها !.

طلبت منى زينب ان نتحدث على انفراد ، اذن قررت ان تشكى الى . دخلنا حجرة نومى واغلقت الباب .

ـ هل اغضبك مجدى ؟.

ـ أبدا ... ولكن ؟

ـ ولكن ماذا ؟

ـ أعتقد انى حامل !.

وللحظة دارت بى الارض . استعدتها لعلى أسأت السمع أو الفهم ولكنها كررت نفس الكلام : « كيف ؟ » ثم «كيف تجرؤين ؟!» لم أتمالك نفسى ، صفعتها ، بصقت عليها وصرخت فى وجهها . كانت زينب تبكى بحرقة وعيناها فى الارض . مجدى هو الكلب ، هو المسئول ، وضعت فيه كل ثقتى وليس أهلا للثقة . ليس هذا وقت الانفعال لكنه وقت التصرف . اتصلت بمجدى فى عمله وقلت اننى أريد أن أراه « فى الحال » ، « خيرا ، هل حدث مكروه ؟ » الكلب يتصرف بهدوء يفقد الانسان عقله . جاء مجدى واجهته بالامر :

ـ زينب حامل !

نظر الى نظرة غريبة ...

ـ غير معقول !

ـ هل تنكر انك عاشرتها معاشرة الازواج ؟!

نظر الى نظرة غريبة ثم ابتسم :

ـ ولكنها مفاجأة ، فعلا .. اسمعى يا خديجة ننحدد موعد الزفاف ونجعل من الفرحة فرحتين .

انه حقير ومجنون . ماذا اقول له ؟ تمالكت نفسي :

ـ يا مجدى لقد اسأت التصرف وخنت الامانة . لقد سمحت لزينب بالذهاب معك الى بيتك لأنى اثق فيك ولكن لم يخطر ببالى قط ان تفعل ذلك !.

ـ ربما كان يجب ان نكون أكثر حرصا لكن هذا ما حدث . ليس فى الأمر مصيبة على اى حال لان زينب زوجتى على سنة الله ورسوله والحمل فى ايامه الاولى . لنحدد موعد الزواج .

ـ بهذه البساطة !!

ـ نعم بهذه البساطة ، لانه يا خديجة ما دام لك كل هذه المحاذير على علاقتنا فما كان يجب ان تسمحى لنا بالانفراد فى بيت وحدنا لساعات طويلة .

ـ سمحت لانى كنت واثقة انكم لستم حيوانات .

ـ لسنا حيوانات يا خديجة ولكننا بشر !

قالها بحدة وكان وجهه شاحبا . صرخت فيه وصرخ فى .

ـ لا تزيدينها يا خديجة اتصرفى بحكمة ، حددى موعدا للزواج ، فلا تكون هناك مشكلة والا ...

ـ والا ماذا ؟!

ـ والا آخذ زينب ، وهى زوجتى بالشرع والقانون !.

ـ هكذا ؟!

ـ هكذا !.

قالها وتركنى وسمعت باب البيت يطرق .

مجدى خاننى ، تصورته افضل شاب على وجه الارض . اعطيته ابنتى فخان الامانة وهاهو الآن يتصرف بصفاقة منقطعة النظير فماذا حدث ؟ هل كان سيئا طوال الوقت وكانت على عينى غشاوة أم انه تغير ؟ هل كان يدعى الخلق الكريم حتى يأخذ البنت وحين ظفر بها ظهر على حقيقته ؟ هل فعل ما فعل لان الشيطان شاطر أم لانه هو نفسه شيطان لا يؤمن له جانب ؟ هل يريد ان يفضحنا وسط الناس ، هل يكرهنا ويضمر لنا شراً ؟ ربما فعل هذا كله لكى يضعنا أمام الأمر الواقع ونزوجه البنت بالطريقة التى يريدها بنفس أثاث بيته . وماذا عن حفل الزفاف فى قصر المنتزه على شاطىء الاسكندرية ؟ ماذا عن الاثاث المصنوع فى دمياط صورة طبق الاصل من الاثاث السويدى فى المجلات ؟ والثوب الذى تخيطه مدام لاورا ؟ كلها ضاعت كما ضاعت ثقتى فى مجدى ، مجدى

الحالى لسعد يتصرف هكذا ، هذا كثير ، كثير جدا . كنت ابكى وارددد « لماذا يارب لم ترفع عن عينى الغشاوة فارى مجدى على حقيقته قبل أن أزوج له البنت ؟! »
انتظرت عودة كمال . قلت وانا اجلس بجواره :
ـ مجدى كان هنا اليوم وتخانقت معه .
رفع الى عينيه متسائلا :
ـ اتضح انه نام مع البنت .
قطب حاجبيه مستاء !
ـ ومن قال ذلك ؟.
ـ زينب
ـ كيف واين ومتى ؟!
قلت متلعثمة :
ـ فى بيته .
ـ وهل تذهب زينب الى بيته ؟.
ـ نعم
ـ دون علمك طبعا ؟
ـ لا بعلمى ، أحيانا اوصلها واحيانا ياتى هو لاخذها .
ـ اية حماقة ، اية حماقة !
كان كمال يضرب كفا بكف وكان وجهه احمر من شدة الغضب لم اخذ يوبخنى ويقول ان ما حدث طبيعى ما دمت سمحت لهما ان يكونا معا فترات طويلة بالشقة بمفردهما .
قلت باحتجاج ممزوج بالقرف :
ـ ولكنى لم اكن اظن انهما كالحيوانات .
ـ كان يجب أن تفكرى أنهما بشر !
غريب ، كمال يحملنى انا المسئولية ويتحدث كانه منحاز لمجدى ولكنه غاضب يكظم غيظه . لم أجرؤ أن أقول له أن البنت حامل لم يبادلنى حرفا بعد ذلك . دخل السرير وأدار لى ظهره ونام اما انا فلم انم طوال الليل . فى الصباح قال لى :
ـ تصرفى ، اتفقى مع مجدى على الاستعدادات الضرورية لحفل الزفاف .. لا أريد أن أراه الآن ، انه زوج ابنتى ولا اريد ان ابدأ علاقتنا باهانته .
غضبى من مجدى وزينب بلا حدود ولكن ليس لدى وقت للتفكير فى مشاعرى فعلى القيام بعشرات الاشياء استعدادا للعرس

الذى حددت موعده بعد أسبوعين . على أن اشترى واوصى واتفق واعد . لا أتحدث مع مجدى الا فى التفاصيل العملية المطلوبة منه أتحدث معه وأنا احتفظ بالمسافة التى خلقها بتصرفه ، مسافة عدم الثقة بعد الطعنة من الخلف . وزينب ايضا أعاملها بجفاء ، لا ابتسم فى وجهها ، ولكنى أتابع حالتها الصحية واقدم لها النصح والتوجيهات حتى لا تسقط فى حملها فتصبح الفضيحة فضيحتين!

قبل الزفاف بيومين طلب مجدى أن يتحدث معى :

ـ تفضل ، ماذا تريد ؟.

ـ افضل ان نذهب الى مكان هادىء خارج البيت .

اخذنى بسيارته الى مقهى انيق باحد الفنادق الكبيرة .

قال :

ـ يا خديجة ان كنت اسأت اليك فانا آسف لم يخطر ببالى ابدا ان اتسبب يوما فى ايلامك .

ـ ما حدث حدث والأسف لا ينفع .

ـ اسمعينى للنهاية . لقد تمنيت طول عمرى ان ارتبط بكم. عندما كنت طفلا كنت أكاد لا اغادر بيتكم وكانت جدتى تشتكى لابى كلما كتبت له رسالة وتقول ابنك يقيم فى بيت الجيران . كنت طفلا وحيدا يعيش فى بيت جدته الوحيدة وكنت اهرب من وحشة بيتنا اليكم لنلعب ونضحك ونتخانق . وعندما وجدتك فرحت كانى وجدت أهلى وبارتباطى بزينب صرت فعلا كما تمنيت دائما واحدا منكم ... وتعرفين اننى احبك ، واحب احمد اخيك وأحب سعد وسوسن واحب زينب ، احبها الآن مرتين ، مرة لانها زوجتى ومرة لانك امها .

يا خديجة أنا فرح بزينب وفرح بالطفل فى بطنها . ربما أخطأت ولكن ما حدث حدث حبا . وها نحن نتداركه وبعد أيام نتزوج أنا وزينب فلنسقط المرارة وننهى المشكلة ولنقل صافى يالبن ونفرح بالفرح .

ومد لى مجدى يده عبر المائدة لكى يمسك بيدى ولكنى سحبت يدى قبل أن يلمسها .

اقمنا الفرح بالشكل المناسب فى فندق كبير . زفة وراقصات ومشاعل وموائد ممتدة ومطربون وبدت زينب فى الثوب الابيض والطرحة فاتنة . هكذا شهد الجميع كما شهدوا لى : « لا أحد يصدق انك امالعروس يا خديجة » يقولون ذلك فأضحك . كنت

ام العروس القاضية المشغولة ولكنى لم أكن فرحة ، كانت المرارة ساكنة فى قلبى ومستتبة .

تمر الايام يتكور بطن زينب وينتفخ . تقول أمي أن البنت ستلد ولدا لان وجهها « تدور وابيض وأصبح مثل القمر » زينب جميلة ولكن الحمل يجعلها اجمل رغم انها تجهد نفسها فى الاستعداد لامتحان الثانوية العامة . تؤدى الامتحان وهى تلبس ملابس الحمل الفضفاضة وتلم شعرها فى ذيل حصان خلف رأسها تقول « لا يضايقني الا الحر » .

اليوم تظهر النتيجة . أنتظر ان يتصل بى مجدى الذى ذهب للاطلاع عليها فى المدرسة فيتصل بى كمال ويقول منشرحا ان زينب نجحت وحصلت على مجموع ٨٠٪ فرحت بالخبر ولكنى تساءلت لماذا اتصل مجدى بكمال ولم يتصل بى انا ؟

بعد أسبوعين اتصل بى مجدى فى ساعة متأخرة من الليل واخبرنى أن زينب جاءها المخاض فأيقظت كمال وتوجهنا الى المستشفى . تظن المرأة أنها تعرف ابنتها ثم تكتشف أن هناك جديدا لا تعرفه فيها . كانت المسكينة تكتم الصرخة ، تبتلعها ابتلاعا . يتقلص وجهها وينضغط . اعرف شدة ما تعانيه من الم من تشنج قبضتها على يدى واختنق بالرغبة فى البكاء ولكنى لا ابكى . يأخذونها الى حجرة الولادة وأجلس فى الانتظار وارى كمال ومجدى شاحبى الوجه يروحان ويجيئان فى اضطراب ظاهر . الرجال أقوياء فى الظاهر وفى المواقف الصعبة يتضح مدى هشاشتهم . اصيح فيهما : « لماذا لا تجلسان وتكفان عن هذه الحركة التى توتر الاعصاب ؟! » .

ترقد زينب فى فراشها ممتلئة رغم الانهاك وجميلة رغم شحوب وجهها . أتت الممرضة بالصغيرة فى الاقمطة البيضاء والثوب الابيض الطويل الذى اشتريته لها بنفسى . انظر اليها : وجه صغير احمر ومجعد وعينان لم تفتحهما بعد وشفتان رفيعتان وانف منفوش وشعر اسود ناعم وكثيف يكاد يغطى جبينها « انها ابنة زينب » تمتمت وانا امد يدى لاحملها . أحطتها بذراعى تماما حتى التصق جسدها الصغير بجسدى وللحظة لم أعرف أن كان ما أسمع هو دقات قلبى ام دقات قلب الصغيرة . احسست بدفقة ما تربط جسدينا كأن بثدييى حليبا يدر .

قال مجدى وهو يقف بجوار زينب ويمسك بيدها وهى راقدة فى الفراش : « سنسمى الصغيرة خديجة ! » .

امي ماتت . كانت قوية ومتماسكة ترعى أبي المريض وتؤنس شيخوخته فخطفها الموت وتركه ينزوى فى أحد الاركان ينتحب . أنا أيضا أنتحب ولا أغفل عن تفاصيل ضرورية : « اكتبوا النعي للنشر فى الجريدة » ، « ابرقوا لاحمد فى أمريكا وقولوا له أننا سنؤجل الجنازة الى الغد لعله يستطيع الوصول قبلها » ، « قولوا لزينب لا تأتى انها نفثة يخشى عليها » ، « هاتوا سعد ، ان لم يقف لجدته فلمن يقف ؟! » امى ممددة فى سريرها الزان العتيق بحجرة نومها وبى رغبة فى رؤيتها وتقبيل يديها ولكنى لا أجرؤ ، ابكى . الموت حداة تنقض وتخطف وتبعثر .

ظهر اليوم التالى أخذوها وكان البيت يعج بالمعزيات ، أتى الرجال وحملوها ووقفت فى الشرفة اتابعهم وهم يضعون النعش فى عربة نقل الموتى . اغلقوا الباب وادار السائق المحرك « احمد لن يراها أبدا . سيأتى من غربته ليجد انها ذهبت ! » ساعتها لطمت وولولت حتى سقطت مغشيا عليها .

النساء يقلن انى مؤمنة وانها ارادة ربنا وأنا امسح دموعي فى صمت وصوت القارىء يتردد فى البيت . نساء فى الحداد يأتين ونساء فى الحداد يذهبن ثم تنقضى أيام العزاء « أبى ، ستأتى للاقامة معنا » يبكي ويقول انه لا يريد ان يغادر البيت « يا أبى ، عليك أن تتصرف بالمنطق والعقل ، كيف يقيم رجل فى سنك وحده فى بيت صار خاويا؟» يمتثل لكلامى وهو يبكى . نغلق البيت . أتكىء على ذراع سعد وتمسك سوسن بذراع جدها ويضع السائق الحقائب فى الصندوق الخلفى للسيارة ونغادر .

خديجة الصغيرة نعمة انعم الله على بها ، لولاها لكانت ايامى قاتمة لا تطاق . طقوس الحداد ، الملابس السوداء ، وفكرة الموت كسرب من الغربان يحوم وينعق . وابى المسكين يضفى على أيامى الكئيبة كآبة . سقط فى بئر فاستكان واستسلم وانزوى فى القاع لا يريد أن يطلع منه ليقضى فى الحياة حاجات الحياة ، أطعمه بنفسى واحميه واغير له ملابسه وهو يتشبث بى كطفل اصابه الفزع .

احمد وصل بعد اربعة ايام من وفاة امى وغادر بعد اسبوع من وصوله ساعتها لازم ابى الفراش اياما يرفض تناول اى طعام

حتى اضطر كمال لتغذيته بزجاجة جلوكوز معلقة الى جواره موصولة بأنبوبة رفيعة تنتهى بابرة مرشوقة فى أحد اوردته . والآن وقد تحسنت حالته وأصبح بمقدوره مغادرة فراشه ينادى على بلا انقطاع يجيبه سعد او سوسن « نعم يا جدى ، هل تريد شيئا ؟ » « أريد خديجة ! » وقد يكون له طلب أو لا يكون ولكنه يريد خديجة ولا يطمئن الا وأنا جالسة بالقرب منه . وعندما اخرج يصبح ، همه الشاغل هو السؤال عنى ، اين ذهبت ؟ متى تعود ؟ وهل قالت انها ستتاخر. لماذا تأخرت ؟ تضج به سوسن ، أما سعد فيسايره ويصبر عليه . كان سعد طفلا هادئا ولطيفا وكبر وصار صبيا هادئا لطيفا ألطف مما ينبغى ، الاولاد فى سنه يلعبون الكرة فى النوادى ويذهبون الى السينما وتشغلهم المصارعة والمغامرات وقد يبدأ انشغالهم بالبنات وهو لا يشغله الا الرسم وانا اقول له أن عليه أن يهتم بدراسته وليس بالرسم لانه سيكون طبيبا فيجيب : « حاضر ياماما » هذا الولد لا يخذلنى ابدا ، مهذب ومطواع ليته يطبع أخته بشىء من وداعته . هذه الهوجاء صاخبة وعنيدة ولا تترك أمرا يمر بهدوء . تناقش وتختلف وتحتج وتعترض دائما بحدة . لو كان سعد كسوسن وسوسن كسعد لبدت الأمور اقرب الى المنطق ولكن لا منطق فى شىء . وهل كان منطقيا أن تتدهور علاقتى بمجدى حين ارتبط به برباط الدم فازوجه ابنتى وأصبح جدة ابنته . لم يعد كما كان، لا ياتى لاستمع اليه ويستمع الى ، لا يسر لى بشىء ، لم يعد صديقا بل مجرد نسيب . خدوم ومهذب صحيح ولكنه بعيد ، أبعد بكثير مما كان قبل أن يتزوج البنت فهل كان يقترب منا لياخذها أم انه حين تزوج وجد من ينصت له فلم يعد بحاجة الى ؟ هل ابتعد لاننى قسوت عليه عندما عرفت بحمل زينب ؟ قد أكون أغضبته ولكنه جرحنى وأنا أكثر الناس ثقة فيه ثم جاء يريد أن تعود المياه الى مجاريها فكيف ؟! لا منطق فى شىء والايام لاتاتى الا بخيبة الأمل واحمد أخى الذى انتظرت عودته سنوات جاء وذهب تاركا لى احساسا بالخذلان وعدم الفهم . وجدت أمامى رجلا مترهلا فى منتصف العمر هو أحمد وليس احمد يؤكد ذلك لسانه المختلف واسلوبه فى التفكير والسلوك وحتى ملابسه العجيبة ــ رابطة عنق لا تناسب القميص وقميص لا يوافق السترة وحذاء مطاط يركب به الطائرة ليسافر من قارة الى قارة وبدا لى أنه قادم ليس من أمريكا بل من الأدغال ! ورغم ذلك تعلق الاولاد به قال سعد أنه لطيف وأعجبت به سوسن اعجابا شديدا ولم أعلق لأنه من غير اللائق ان انتقد

اخي امامهم ولكني فكرت ان الطيور على اشكالها تقع وان اخي مجنون وابنتي مجنونة وربنا يستر . جاء احمد وذهب وبكيت عند استقباله في المطار وبكيت اكثر عند وداعه .

البيت كئيب ولولا خديجة الصغيرة لأصابني انهيار عصبي . اذهب كل صباح الى زينب : « اى صباح جميل هذا الذى يصطبح الانسان فيه بهذا الوجه !» جميلة واميرة وتملأ القلب بالبشر . احملها من مهدها واخلع عنها ملابسها واحممها وأرش جسمها ببودرة التلك الناعمة ثم الفها بالأقمطة والبسها ثوبا ابيض جميلا واعطيها لأمها لترضعها . خديجة بلسم وهدية اتأملها فتملأ قلبي بالرضا وانسي كل الأوجاع . هدية صغيرة ، تكبر وتجلس ، تحبو وتنبت لها اسنان . احب ان احملها بين يدي واحب ان أشترى لها ملابس ولعبا وحليا ، اسورة صغيرة من الذهب ، حلقا من اللؤلؤ ، مشبكا يحمل آية الكرسي محفورة على رقيقة من البلاتين . احب ان اشترى لخديجة لأني احبها ولانها اميرة يجب أن تلبس ما يليق .

حصلت سوسن على الشهادة الثانوية ، تريد أن تلتحق بالجامعة وانا لا اريد . أخشى أن تفلت البنت من يدى نهائيا . عمتى كريمة طلبتها لأصغر أبنائها وهو شاب ممتاز ويعمل مهندسا ولا يكبر البنت سوى بسبع سنين . قلت لكمال فقال : « مادامت البنت تريد اكمال دراستها فدعيها » قلت : « ولكنها عنيدة ومتهورة وقد تندم فى المستقبل ، من الافضل أن نزوجها قال : « اتركيها وشأنها » .

يوم من أيام شهر سبتمبر مخنوق وقائظ عادت سوسن الى البيت مندفعة كالعاصفة وانهالت على تقبيلا واخبرتنى انها قرأت اسمها فى كشوف المقبولين « وستكون ابنتك محامية قد الدنيا لا تترافع فى قضية خاسرة ! » فقلت لها انه من الأجدى أن تدخل تستحم لأن رائحتها لا تطاق . كان وجهها وشعرها وملابسها مبللين بالعرق .

كانت سوسن تحسب الايام فى انتظار بداية العام الدراسى عندما مات جمال عبد الناصر . اتصل بنا مجدى بالتليفون وأبلغنا بالخبر . فتحنا التليفزيون ، كان القارىء يتلو آيات من القرآن ، فتحنا الراديو فوجدنا نفس الشىء ثم اذاعوا النبأ . لا احب عبدالناصر ولا أنا معجبة به ، أبى يكرهه ويقول انه خرب البلد والدكتور سالم يقول انه أطلق الغوغاء علينا وأثار الحقد فى نفوسهم وقال لهم لكم حقوق ونسى أن يقول أن عليهم واجبات ، كمال لا يكرهه بنفس القدر ولكنه لا يثق فيه .

قلت الخبر لأبى قال :

ـ ماذا تقولين ؟

فكررت بصوت أعلى :

ـ عبد الناصر مات

ـ من ؟

ـ عبد الناصر !

ـ قتلوه ؟

ـ لا ، مات .

ـ وهل أرسلوا فى طلب احمد فؤاد ؟

ـ احمد فؤاد ؟

ـ ولى العهد

فضحكت ولكنى كنت مرتبكة وربما حتى خائفة فما الذى يحدث لآن ؟

ـ سوسن ، ماهذا ؟!

صرخت فيها وانا أكاد لا أصدق عينى . هذه البنت مجنونة وستجننا معها استبدلت بثوبها ثوبا أسود . طلبت منها أن تخلع هذه الملابس « فورا » ... لم تستجيب .

يتوافد على مصر رؤساء الدول المختلفة بعضهم يتحـــدث فى التليفزيون ينعى عبد الناصر ، نشاهدهم كما نشاهد جنـــازته فى التليفزيون ولا نستطيع أن نمنع دموعنا ونحن نرى الشوارع تغص بالناس يتخاطفون النعش يطير فوق رءوسهم يختفى منهم ويتوارى ثم يظهر فوق اعناقهم . أنا وزينب نبكى وسعد يغالب دموعه أما سوسن فلا افهمها تجلس بملابس الحداد صامتة جامدة الوجه كأنها تحولت الى حجر .

اصرت سوسن أن تلبس اسود اربعين يوما . حاولت أن اثنيها ولم افلح فقررت انها مجنونة وتركتها كما نصح ابوها كلما أطلب منه أن يعاوننى فى تربيتها ، كلما شكوتها له قال « اتركيها » ولو افلتت البنت نهائيا ؟ يكون هو المسئول !

تنقضى الأيام والشـــهور مقفرة وكئيبـــة . ابى يجلس أمام التليفزيون يهذى بذكريات مكررة . كمال غائب فى عمله وسوســـن وسعد منهمكان فى دروسهما أكاد لا اراهما . لولا خديجة الصغيرة لأغرقتنى الوحشة . انها وردة وهبها الله لى . تسمينى ماما . وأحب أن تقيم معى . مجدى وزينب يتركانها معى اياما ثم يأتيان ويأخذانها ... يملؤنى الضيق وما أن يصبح الصبح حتى أذهب لرؤيتها . خديجة وردة ، وردتى .

ذهبت سوسن لتأتى بنتيجة الامتحانات وعادت . عندما دقت الباب ودخلت عرفت أن شيئا ما ليس على مايرام .

ـ ماذا حدث ؟

ـ رسبت فى ثلاث مواد .

ـ كيف ؟

ـ لا ادرى .

ـ لعل فى النتيجة خطأ

— ....
— هل يذهب ابوك للعميد لكى يراجعوا اوراقك ؟.
— لا .
— الم تحضرى هذه الامتحانات ؟
— حضرتها
— اذن كيف رسبت ؟
— ربما لم استذكر بالشكل الكافى .
لم اصدقها فهى تجلس على مكتبها بالساعات وهى ذكية ولم ترسب فى حياتها . فى الليل قلت لابيها فتحدث معها فى حجرتها ثم قال لى : « يبدو أن البنت كانت تقضى معظم وقتها فى قراءة كتب لا علاقة لها بالدراسة » . « كيف ، ماذا كانت تقرا اذن ؟! »
قال : « لم اسألها » .
كان أول ما فعلته فى الصباح هو سؤالها :
— ماذا كنت تقرأين ؟
— الآن ؟.
— ماذا كنت تقرأين بدلا من الكتب المقررة ؟
— كتب !
— أعرف انها كتب ، فى أى موضوع ؟
— فى التاريخ ، فى الاقتصاد ، فى السياسة .
— اسمعى ياسوسن لو كنت أعرف انك سترسبين لما ادخلتك الجامعة . وان كانت المسألة هى قراءة كتب للتسلية فيمكنك عمل ذلك فى البيت .
— ولكن ياماما ..
— اسمعينى جيدا . أن لم تتفوقى فى دراستك ، لا اقول ان لم تنجحى ، اقول ان لم تنجحى وبتفوق سابقيك فى البيت !
لا ادرى ما الذى يحدث للأولاد حين يكبرون ، انهم يخيبون رسبت سوسن اما سعد فيقضى معظم الوقت فى الرسم وعمل تلك التماثيل الطينية الصغيرة التى حولت حجرته الى مزبلة . ادفعه للمذاكرة دفعا ، اقول له ستكون طبيبا والطبيب لا يبدد وقته فيما لا طائل وراءه فيقول يا أمى دعينى اكمل ما بدات فأتمكن من التركيز فى الدروس . فكيف اتركه واكمال ما فى يده قد يستغرقه الليل بطوله . لولا خديجة الصغيرة لانفجرت ضيقا .
بدأ العام الدراسى وأبقيت عينى مفتوحتين . أراقب سوسن وسعد لأتأكد انهما يدرسان . اجلستهما امامى فى أول ايام الدراسة

وقلت لهما بوضوح انني لن اسمح بأى اهمال فى الدراسة « كتب خارجية ، رسم ، تماثيل ، كلها ممنوعة . عندما تنتهى السنة الدراسية افعلا ما تريدان . الآن تدرسان وفقط ! » سعد يحدق فى قدميه ولا يرفع رأسه . سوسن لا يعجبها كلامى ، اعرف هذا من نظرة عينيها ولكنها لا تجرؤ على فتح فمها .

احب ان افاجىء الاولاد اثناء الدراسة لاتأكد . فتحت الباب على سوسن فوجدتها جاثية على ركبتيها منحنية على ورقة بيضاء كبيرة مبسوطة امامها على الارض . وكانت تكتب ببطء وعناية بقلم اسود .

ــ ماذا تفعلين ؟

ــ كما ترين ، اكتب

ــ ولماذا على هذه الورقة الكبيرة ؟

ــ انها مجلة حائط .

ــ طلبها احد الاساتذة ؟

ــ لا ، ولكنها جزء من نشاط الأسرة .

ــ دعينى ارى

اخذت المجلة وبسطتها امامى على المكتب . كان اسم المجلة « الشعلة » وبها مقالات ورسوم كاريكاتورية . مقال بعنوان : « الجامعة المطوقة » وآخر عنوانه « قطط سمان تحكم وفئران تحمل القلم » ومقالات اخرى لم احتمل قراءتها . كان الأمر صادما بما لا يحتمل . اخذت امزق المجلة صرخت سوسن : « ماما ماذا تفعلين ، هذه المجلة ليست ملكى ... ثم انها » « اخرسى ! » قلت وانا اصفعها على وجهها « اخرسى تماما لقد تعبت من الكلام معك ! » وعندما عاد كمال من عمله اخبرته بكل شىء ، حكيت له بالتفصيل عن المقالات التى تهاجم الحكومة والرسوم الكاريكاتورية التى تسخر من الجميع حتى مدير الجامعة يسخرون منه ، تصور ؟! .

نادى على سوسن وراح يتحدث معها بهدوء مثير للأعصاب ، كنت اغلى غيظا ، اكاد انفجر . قال كمال :

ــ سوسن نحن اسرة لا علاقة لنا بالسياسة . تريدين خدمة البلد شىء جميل ونبيل ولكن مادخل السياسة فى الموضوع ؟! انك تهاجمين الحكومة ولن تجنى من وراء ذلك سوى السجن والبهدلة. وانت بنت ونحن اسرة محترمة وانا طبيب اخدم بلدى فى مجال تخصصى . تريدين ان تخدمى بلدك اهتمى بدروسك وكونى محامية

ماهرة وليس هناك خدمة افضل ولا اجل وبالمناسبة لو لم ترسبي العام الماضي لوفرت على نفسك نصف هذا الكلام .
طأطأت رأسها وقالت :
ــ لقد أخطأت برسوبي واعدك الا يتكرر الخطأ .
ــ اريدك ان تعديني الا تتدخلي في المسائل السياسية .
ــ ولكن ...
ــ اريد وعدا !
تدخلت انا في الحديث :
ــ ان لم تعدى بابا الآن فلن أسمح لك بالذهاب الى الجامعة
ــ ولكن ياماما
قاطعتها :
ــ أختاري .
ــ ولكن
ــ أختاري ولا مجال للنقاش .
ــ أريد أن أذهب الى الجامعة
قلت :
ــ اذن هذا وعد منك بالا تكون لك علاقة لا بالسياسة ولا بمن يعملون بها من طلاب .
ــ ولكن هذا ظلم ... ليس هكذا تفرض على المرء الاختيارات !
قالتها في حدة وهي تغادر الى حجرتها فقلت لكمال ان سوسن مجنونة ولن توصل الأمور لبر أمان . سوسن نقيض سعد هو لطيف ويسمع الكلام اما هي فمتمردة تحتاج لجاما لكى لا تفلت . اثناء السنة الدراسية اكاد لا اغادر البيت لأشرف على دراسة سوسن وسعد وحتى في الاجازة لا اخرج الا قليلا لان ابى صار متعلقا بى كطفل صغير . ان دخلت دورة المياه يسأل اين ذهبت ان تحدثت في التليفون يحلو له أن يطلب منى قضاء حاجاته . حتى خديجة لا استطيع الذهاب لرؤيتها بل تحضرها لي زينب او مجدى . زينب حامل للمرة الثانية . اريد ان تلد ولدا ومجدى أيضا يريد ذلك وهي تضحك وتقول : « ما يأتى به ربنا خير » زينب طيبة فلماذا جاءت سوسن مختلفة الى هذا الحد ؟
سعد عاد متهللا بخبر نجاحه في الثانوية العامة وعرفت قبل أن ينطق كان وجهه مشرقا وعيناه ضاحكتين :
قلت وانا احتضنه :
ــ مبروك ياسعد :

ـ الله يبارك فيك ياماما
ـ والمجموع ؟
ـ ٧٢ ٪
وجمت ، كيف يدخل كلية الطب بهذا المجموع ؟! .
ـ ولكنك قلت لى انك اجب على الامتحانات بشكل جيد
ـ نعم
ـ كيف اذن حصلت على هذا المجموع ؟
ـ ولكن ٧٢ ٪ مجموع جيد يا أمى وسيمكننى من دخـــول الجامعة .
ـ لن يمكنك من دخول كلية الطب .
تلعثم سعد واحمر وجهه . قال :
ـ اسمعى ياأمى دعينى أقول لك الحقيقة بلا لف ولا دوران : لا ارغب فى دخول كلية الطب .
ماذا يريد هذا الولد ، لا أفهم ، هل يمزح معى ، هـــل يلعب بى .
ـ لا تقل هذا الكلام يا سعد ، اعرف انك اجتهدت ولم تحصل على المجموع المناسب ولكن بامكانك أن تعيد السنة وتدخل كلية الطب .
ـ لن اعيد السنة لسبب بسيط هو ان مجموعى يســـمح لى بدخول كلية الفنون الجميلة وهى ما اريده .
الولد يقول هذا الكلام لأنه لا يريد اعادة السنة ولكنها لحظـــة يأس عابرة .
ـ اسمع ياسعد سنة واحدة اضافية ليس لها قيمة بالمقـارنة لمستقبلك كله ... ستكون طبيبا ، اعد السنة وكن طبيبا !
ـ ولكنى لا اريد أن أكون طبيبا .
قالها بحدة وهو يدب بقدمه على الارض ، ساعتها انفجـرت باكية . الاولاد يريدون القضاء على ، انهم ناكرون المعروف ، كل هذا الجهد وهم لا يفكرون الا فى انفسهم . حاول سعد أن يطيب خاطرى ولكنى دفعت به بعيدا وقلت له انه ولد عاق وجاحـد « اتركونى وحدى ، لا أريد منكم شيئا » دخلت حجرتى وصفقت الباب وبقيت ابكى حتى عاد كمال .
ـ هل رسب سعد ؟.
ـ حصل على ٧٢ ٪
ـ هل صدمته النتيجة ؟

ـ لم تصدمه ، صدمني كلامه فهو يقول انه يريد دخول كليـة الفنون الجميلة .

ذهب كمال ليرى سعد ثم عاد وقال :

ـ اغسلي وجهك وتعالي لنتناول الفداء .

ـ هل تحدثت معه ؟

ـ تحدثت

ـ وماذا قال ؟

ـ قال انه يريد دخول كلية الفنون

ـ وماذا قلت ؟

ـ لم اقل شيئا

فواصلت البكاء وقلت انني لست جائعة .

بقيت ابكي اليوم بطوله وفي الليل اعطاني كمال مهدئا فنمت وفي اليوم التالي اعتكفت في حجرتي . لثلاثة ايام لم ابادل سعد حرفا كنت افكر انه خذلني وهو الذي عشت اعول عليه وابني الآمال فما الذي يبقى لي . زينب مشغولة بزوجها وسوسن مجنونة لا يمكن الاعتماد عليها وها هو سعد يخذلني ، احمل والد واربي واكبـر ولا افعل سوى الاهتمام بأمرهم ، كل السـاعات وكل الأيام وكل السنين من اجلهم ثم يخذلون ، ابكي .

سعد يدق الباب ويدخل . اقول له ان يذهب لاني لا أرغب في رؤيته ولكنه يقترب مني والدموع تبلل عينيه : « لا تغضبي يا امي ، سافعل ما يرضيك . ساعيد السنة » .

قال مجدى :

ـ قبل أيام عرض على السفر الى المانيا فى منحة تدريبية لمدة سنة .

ـ وهل وافقت ؟

ـ وافقت

ـ لا تقلق على زينب وخديجة . سافر انت بالسلامة وهما تنتقلان للاقامة معى .

ـ ولكنى سآخذهما معى

ـ كيف ؟.

ـ هذا ما قررته !

أمره غريب ! قبل ان يتزوج كان يستشيرنى فى كل صغيرة وكبيرة والآن يقول هذا ما قررته . هكذا ببساطة وكأن الامر لا يتعلق بى أنا أيضا ، ألن يأخذ ابنتى وحفيدتى ؟!

ـ ولكن زينب حامل ومن الافضل أن تكون فى رعايتى أثناء الولادة وبعدها .

ضحك :

ـ لا تقلقى يا خديجة يوجد فى المانيا إطباء ومستشفيات ايضا .

نظرت لزينب لعلها تقول شيئا ولكنها لم تقل . من الواضح أنها تريد مصاحبته .

ـ هذا شأنكما ، سافرا ان أردتما ولكن اتركا لى خديجة .

ضحك مجدى ثانية :

ـ هذا هو المستحيل بعينه . لا أنا ولا زينب يمكننا الاستغناء عنها .

وأنا ؟ هذا ما لا يفكران فيه . ركبنى الغم ولم أقل شيئا . مجدى قلبه أسود ، انه يكرهنى ويريد الانتقام منى . أخذ منى زينب والآن يأخذ خديجة . لم أنم طوال الليل وفى الصباح سألنى كمال ان كنت مريضة . قال « وجهك أصفر » . نظرت فى المرآة ، كان كلامه صحيحا .

قلت لنفسي هما لا يهتمان بى فلماذا أهتم أنا ! سأواجـه القسوة بالقسوة . كررت ذلك لنفسي عشرات المرات ولكنى عندما ودعتهم فى المطار بكيت وعندما عدت الى البيت بكيت أكثر . ستلد زينب فى الغربة فمن يقف بجوارها ساعة الألم ؟ من يمسك بيدها ساعة تقصم الطلقة ظهرها ؟ وخديجة هل تنسانى ؟ مجدى قلبه أسود لا ينسى أبدا اننى أسأت اليه يوما ... ولكنى لم أسىء ، هو الذى أساء ويسىء !.

نقلنا أبى الى المستشفى ، انه يحتضر ، أعرف ذلك من حالته وعيون الاطباء . دخل فى غيبوبة ولم يعد يتعرف على أحد ثم مات، هذه أسوأ سنة مرت على فى حياتى . ليس صحيحا أن أبى كان يزيد من كآبة البيت . غاب فاصبح البيت أكثر كآبة . لا أجد ما أفعله بنفسى . كمال غائب طوال اليوم وسوسن وسعد يقدمان امتحانات آخر العام كل يستذكر دروسه فى حجـرته خلف باب مغلق . يمر اليوم بطيئا وموحشا وأنا أدخن بلا انقطاع واسرف فى الأكل بشكل استغربه وفى الليل أنام بشكل متقطـع وتداهمنى الكوابيس . النهار كئيب ولا يمر والليل مفزع وأنا أختنق .

استيقظت من نومى يلفنى شعور ناعم ودافىء .. ماذا حدث ؟ شىء ناعم كملمس غطاء صوفى فى صباح يوم شتائى أو كجسد خديجة الصغيرة بعد ولادتها ... انه طفل نائم بين ذراعى ، هذا هو ما رأيت .

كنت أحمل طفلا صغيرا له وجه وردى مدور وشعر أسـود كثيف . وجه الوليد يلاصق ثديى أشعر بأنفاسه الدافئة وفمـه المستدير يخفى حلمة الثدى السوداء وأشعر بالحليب يفيض .

لفنى الحلم طول النهار وانتظرت عودة كمال كى أحكى له وعندما عاد قلت « لقد رأيت حلما جميلا الليلة » قال : « خيرا ؟ » فحكيت. ضحك وقال : « زينب حامل وعما قريب تحملين بين يديك ابنها » قلت : « ولكنها رؤيا ! » فلم يستوقفه كلامى . ولكنها رؤيا كررت لنفسى ولو تركت نفسى بلا موانع أحمل ويأتينى الطفل الذى حلمت به . شغلنى الأمر لأيام ثم حدثت كمال فاستغرب ، ثم استنكر ورفض بشكل قاطع أن ننجب طفلا فجرحنى وأفسد فرحى .

الأيام تمر بطيئة وبلا معنى لا أجد ما أفعله أو ما يثير الاهتمام ، استيقظ من نومى متأخرة فى الغالب ، أشرب الشاى ولا أفطر فى محاولة لانقاص وزنى الذى زاد فى الشهور الاخيرة بشكل ملحوظ،

اذهب الى مصفف الشعر مرتين فى الاسبوع ، واحيانا أذهب الى النادى حيث التقى ببعض المعارف استمع الى ثرثرتهن بقدر قليل من الاهتمام .

على مائدة الفداء فى يوم جمعة قال سعد انه يريد ان يسافر الى أوروبا فى الأجازة الصيفية وكان يوجه كلامه الى ابيه . قال أبوه : « سافر وخد معك أمك وأختك واذهبوا الى زينب فى المانيا لتطمئنوا عليها وعلى خديجة الصغيرة وكريم » ، وكانت زينب قد وضعت قبل ايام وليدا أسمته كريما . تلعثم سعد واحمر وجهه ثم قال وهو ينظر الى الصحن الذى أمامه : « آخذ سوسن وماما الى زينب فى ألمانيا واتركهما هناك وأواصل رحلتى ، اريد أن أذهب الى ايطاليا وفرنسا لمشاهدة الآثار الفنية » سعد يريد السفر وحده ، سأسمح له بالسفر سيصبح طبيبا ولابد أن يسافر ويعرف ويجرب فيبهر الآخرين بمعارفه ومشاهداته ، قلت : « اجتهد فى دروسك يا سعد وما أن تنتهى الامتحانات حتى تسافر » قالت سوسن : « وانا ؟ » قلت : « أنا وانت نسافر معا فى فرصة أخرى » سوسن مجنونة وسعد لا يستطيع لجمها والسيطرة عليها ، لابد ان أكون معها .

بعد الامتحانات سافر سعد ، تاتينى منه بطاقات بريدية « ماما انا بخير . وصلت اليوم الى روما ولا أدرى متى اغادرها . سلامى الى بابا وسوسن . قبلاتى » . كلمات خاطفة برقية يكتبها لى على عجل ، ولكنه يكتب لسوسن رسائل طويلة ، ويحملها ساعى البريد فأعرف من الخط المنمنم الجميل على الظرف أنها منه « ماذا يقول سعد يا سوسن ؟! » . تهز كتفيها : « يقول انه مبسوط ! » ولا تزيد .

اليوم وصلتنى من سعد رسالة قلت لنفسى قبل ان اقراها ظلمت الولد ، قلت لا يهتم بأمرى ولا يعنيه حتى أن يحكى لى اخباره ببعض التفصيل وها هو يكتب لى رسالة . بدأت أقرأ :

ماما الحبيبة ...

اكتب لك من باريس التى وصلتها منذ اسبوع . فكرت طويلا قبل ان أقول لك ما سأقوله ، فكرت ان اطلب من سوسن أن تحدثك فى الموضوع ثم عدلت . ساحاول ان اكون مباشرا وشجاعا فى طرح الامر وحاولى أن تتحلى بالصبر وأن تفهمينى .

قبلت أن اعيد السنة فقط لكى ترضى عنى ولكى لا تقولى لم

يدخل سعد كلية الطب لانه لم ينجح فى الحصـول على درجات تؤهله لذلك . فكرت فى ذلك كله ، وفكرت فيه كثيرا وطويلا . اعدت السنة رغم عدم رغبتى فى اعادتها . اعدتها من أجلك ، فقط من اجلك . وبعد ايام ستظهر النتيجة والأرجح اننى ساحصل على المجموع الذى يؤهلنى لدخول كلية الطب – وقد لا احصل عليه – ولكنى يا ماما فى الحالتين لن ادخل كلية الطب ، هذا ما قررته فلست مهتما ولا راغبا فى ان اكون طبيبا . اريد ان ادرس الرسم والتصوير لأنى ارغب فى ذلك فعلا واحبه وأرى فيـه مستقبلى وامكانيات نجاحى . لو يقبل ابى الانفاق على دراستى هنا أكون سعيدا وممتنا بلا حدود وان لم يقبل أعود الى القاهرة لألتحـق بكلية الفنون وآتى للدراسة هنا فى المستقبل عندما تتيسر الامكانية.

لا تغضبى يا ماما ، لا تقولى سعد ولد عاق ، فكرى فقط انك تريدين لى دراسة ما لا اهتم به واننى أريد دراسة ما احبه ، ربما لو فكرت فى ذلك تغيرين رايك .

• احبك واحترمك وافتقدك وارسل لك ولبابا وسوسن سـلامى وقبلاتى ...

سـعد

اعدت قراءة الرسالة وانا اضغط على اسنانى غيظا . اذن عاد السنة ليرضينى ! انه طفل ولابد من معاملته كالاطفال . وضعت فى حقيبتى رزمة من الاوراق المالية وجـواز سفرى ونزلت الى شركة الطيران الفرنسية واشتريت تذكـرة طائرة ذهابا وعودة واستفسرت عن مكان القنصلية الفرنسية واتجهت اليها للحصول على تأشيرة دخول الى فرنسـا .

قلت للموظف : « اريد تأشيرة لأسبوع واحد فقط ! »

صباح اليوم التالى ودعنى كمال فى المطار ونصحنى بمشاهدة معالم باريس والاستمتاع بوقتى فيها واستغربت كلا « وهـدوء » فهل انا ذاهبة لقضاء اجازة ؟ انا فى طريقى لانقاذ الولد . يريد ان يكون فنانا .. يافرحة قلبى بالفن والفنانين ! لقد فقد الولد عقله. كانت رسالة سعد فى حقيبتى تحمل عنوانه وانا فى مقعدى انتظر ان تهبط بى الطائرة فى مطار اورلى . ساستقل سيارة أجرة من المطار الى العنوان فأجد سعد واعيده معى الى القاهرة ، فى نفس اليوم ان امكن !.

هبطت الطائرة وختم لى الموظف الفرنسى الجواز . استلمت

حقيبتي وغادرت المطار وركبت سيارة أجرة وأشرت للسائق بالعنوان المكتوب على الظرف . الطريق من المطار الى المدينة طويل كأنه بلا نهاية وبعد الحركة المنسابة فى الطريق السريع دخلنا الى قلب المدينة حيث الزحام والمرور البطيء . توقفنا مرات عديدة امام الشارات الضوئية الحمراء واخيرا أنزلني السائق فى شارع مزدحم بالمحلات التجارية واكشاك الجرائد والمارة واشار بيده فى اتجاه أحد الازقة ففهمت ان العنوان هناك . فقد سعد عقله يقول لا اريد دخول كلية الطب ويسكن فى باريس ، مدينة الحضارة والنور ، فى حي كحي الموسكي ! البضائع تحتل الارصفة تكاد لا تترك مكانا للمارة ، أحذية ، كتب ، جرائد ، ملابس ، صور . دخلت الزقاق الذى أشار اليه السائق كان مبلطا بحجارة مستطيلة صغيرة الحجم وعلى الجانبين مطاعم صغيرة تعرض فى واجهاتها الزجاجية محاشي وأسماكا ومأكولات بحرية . سألت احد المارة عن العنوان فأشار الى عطفة الى اليمين دخلتها فوجدت رقم الفندق . فندق ؟! انه خن دجاج وليس فندقا : مدخل معتم صغير به عارضة خشبية تقف خلفها امراة بدينة بيضاء شعرها الاسود المجعد مفروق من المنتصف وعيناها سوداوان . سألت عن سعد فقالت انه غير موجود « متى يعود ؟ » « لا اعرف » وعندما قلت انني أمه ابتسمت المراة ابتسامة عريضة فبانت سنة ذهبية فى فمها وقالت وهي تمد يدها للسلام على انها جزائرية وان اسمها رشيدة وكانت تتحدث فرنسية مطعمة بكلمات عربية . خرجت من وراء الحاجز الخشبي وسلمت على مرة أخرى وقالت ان سعدا ولد لطيف وانه لا يتاخر فى الليل « ربما يعود بعد ساعة او ساعتين » .

اجلستني رشيدة فيما اسمته « صالونا » والذى لم يكن سوى ثلاثة مقاعد قديمة اهترا قماشها وبلى حتى لم يعد ممكنا تحديد لونها الاصلي ثم اتت لى بفنجان شاى وهى تقول انها تحب اغاني ام كلثوم وان أخاها عبد الكريم سمى ابنه جمالا على اسم جمال عبد الناصر . وضحكت فبانت سنتها الذهبية ثم سالتني ان كنت اريد غرفة بالفندق فقلت انني لا اريد فاستاذنت قائلة ان عليها بعض الاشغال .

جلست فى انتظار سعد فى المكان المعتم الذى اسمته المراة الجزائرية « الصالون » ما ان يأتى سعد حتى آخذه الى فندق آخر يليق بالبشر ! رايت المراة الجزائرية تتحدث مع شاب آسيوى ثم

تخرج من وراء العارضة الخشبية ويحل هو محلها . حيتني وذهبت قائلة « لا تقلقى ، لن يتأخر سعد ، الى اللقاء غدا » تابعت حركتها الثقيلة وردفيها الممتلئين وثوبها القطنى الرخيص وهى تغادر . نظرت الى حيث كانت تقف فالتقت عيناى بالشاب الاسيوى الذى ابتسم ابتسامة عريضة بلا داع .

كدت اغفو وانا جالسة انتظر وربما غفوت وصحوت على سعد يهتف : « ماما ، غير معقول ! » قال انها مفاجاة .

ـ لماذا لم تقولى لأنتظرك بالمطار ؟!

ـ أحزم أمتعتك لنذهب الى فندق .

ـ ولكن هذا فندق ـ توقف ـ لا يناسبك اليس كذلك ؟ . على اى حال اقضى الليلة هنا معى وفى الصباح نبحث عن فندق آخر .

ـ الآن سنذهب ! احزم امتعتك وقل لهذا الاسيوى ان يبحث لنا عن مكان فى فندق من فنادق الدرجة الاولى .

ـ ولكن ...

ـ سعد اننى انتظرك منذ ثلاث ساعات . لا أريد ان أنتظر اكثر !.

كنت مرهقة وحادة المزاج . تحدث سعد مع الشاب الآسيوى ثم صعد ليأتى بحقيبته .

ركبنا سيارة اجرة الى فندق بالشانزيليزيه على مقربة من قوس النصر . كان الفندق ذا طراز عتيق سقفه عال تتدلى منه ثريات الكريستال الضخمة . اعطى موظف الاستقبال مفتاح الحجرة لشاب اسمر حمل حقيبتينا واستدعى المصعد فتبعناه . توقفنا فى الطابق الثالث . ادار الشاب المفتاح فى الباب فانفتح على غرفة فسيحة بها سريران . وضع الحقيبتين وقال « تصبحان على خير » وذهب .

قلت لسعد « الآن سانام لانى متعبة وفى الصباح نتحدث » قال « لم تأكلى شيئا يا ماما ، الست جائعة ؟ » قلت اننى لست جائعة ودخلت الحمام وخلعت ملابسى وفتحت الماء لأتحمم .

عدت بسعد الى القاهرة وقال كمال : « هذه اقصر زيارة الى باريس سمعت بها » ولم اكن تغيبت سوى ٢٩ ساعة . قلت : « لم تكن زيارة الى باريس ، كانت مهمة لانقاذ الولد . سعد سيكون طبيبا ، افهمته ذلك ، ولا مجال لعبث الاطفال ! » .

سننشيء مستشفى خاصا ، ننشئه على قطعة ارض كنا اشتريناها قبل عدة سنوات لنقيم عليها بيتا بحديقة ولم نفعل • مساحة الارض مناسبة وموقعها ممتاز فهى تطل على النيل فى الطريق الى المعادى • سافر كمال الى المنيا حيث يملك أرضا زراعية وباعها وعاد بحقيبة جلدية صفت فيها الاوراق النقدية رزما ، كل رزمة منها مربوطة باستك قال « مات عبد الناصر واستقرت أحوال البلاد الاقتصادية واصبح بامكاننا أن نبدأ » •

حديث المستشفى موضوعنا اليومى ، ما تم ، وما سوف يتم • اتفق كمال مع شركة مقاولات لمعاينة الارض ووضع التصميم الهندسى المناسب • مستشفى كبير من عشرة طوابق مزود بأجهزة حديثة واطباء مهرة وممرضات متمكنات وحديقة بها زهور ومقاعد خشبية مطلية بالوان زاهية . هذا ما يحلم به كمال وما احلم انا ايضا معه .

كل يوم اذهب الى موقع العمل . ما ان احتسى الشاى حتى اركب سيارتى واقودها الى ميدان التحرير ، اتجاوزه ثم انعطف يسارا الى كورنيش النيل. واسير فى خط مستقيم بمحاذاة الشاطىء حتى اصل. أراقب الالات الضخمة وهى تدك الارض بايقاع منتظم وعال يصم الاذان .. المساحة متساوية الاضلاع تشبه صندوقا غائرا فى الارض هى المساحة التى تقام عليها الاساسات . بعد وضع الاساسات بداوا فى اقامة هيكل المبنى • أكوام من الاسمنت والرمل والزلط وصفات من الطوب تملأ المكان وعمال البناء يشتغلون فى ملابسهم الداخلية الرثة يتوزعون على الارض وفوق السقالات ، كل شىء يسير كما يجب !.

ستكون المستشفى من عشرة طوابق يخصص الطابقان الاول والثانى للعيادة الخارجية يتوسط كل منهما قاعة واسعة للانتظار تحيط بها غرف الكشف. فى الطابق الاول غرف الكشف الباطنى والجراحة وامراض النساء والاسنان والعيون وفى الطابق الثانى التحاليل والاشعة ورسم القلب • وفى الطابق الارضى المغاسل والمطابخ • وفى الطابق الاخير سكن الاطباء • أما الطوابق الستة الاخرى ففيها خمسون غرفة مخصصة للنزلاء من المرضى الى جانب الصالات وحجرات الممرضات . وفى مدخل المستشفى بجوار الاستقبال ثلاث محلات صغيرة احدها لبيع الزهور والثانى للحلوى والثالث للمجلات والجرائد .

قلت لكمال انني مستعدة لتحمل مسئولية الاشراف على تأثيث المستشفى . المهمة صعبة ومرهقة ولا تترك لي ساعة فراغ ولكني اجد فيها متعة . اقارن بين الامكانيات والبدائل وأستقر فى نهاية المطاف على التعامل مع محل كبير للاثاث بدمياط يملكه الحاج عبد الرسول سيصنع كل ما تحتاجه المستشفى من أسرة وخزائن وطاولات وسيكلف أثنين من النجارين الاكفاء بعمل دواليب الحائط. اتفقنا على كل شيء المقاسات ونوع الخشب أو المعدن والطلاء والثمن وموعد التسليم .

رغم تعدد مسئولياتي الا انني اشعر بالارتياح والرضا . التحق سعد بكلية الطب وأصبحت سوسن في السنة الرابعة بكلية الحقوق وعادت زينب من الخارج مع طفليها . عجبت كيف كبرت خديجة فى العامين اللذين تغيبوهما فى الخارج والصغير كريم لطيف وجميل ولكن للاسف لا أتمكن من رؤيته كثيرا . زينب تحتج وتقول انني نسيتها وانني فى السابق كنت أزورها يوميا والان لو لم تسأل هي عني وتأتي لرؤيتي لا تراني . أؤكد لها أن كلامها غير صحيح ، كل ما في الامر أن المستشفى يبتلع الوقت ابتلاعا !

أذهب كل يوم الى المعادى أتابع العمال وهم يمدون مواسير المياه أسلاك الكهرباء ويبلطون الارضية ويركبون الابواب والنوافذ . سباكون وكهربائية ونجارون ومبلطون يعملون طول اليوم وعلى أن أمر عليهم لاشعرهم ان للعمل صاحبا مهتما حريصا ومفتوح العينين . العمال مهملون لا يقومون بواجباتهم الا لو وقف صاحب المصلحة على رءوسهم ، وأنا أقف على رءوسهم .

أستيقظ في الثامنة وأشرب الشاى مع كمال ثم يذهب هو الى عمله وأعطى أنا التعليمات للطباخ والشغالة بشأن المطلوب للبيت من أكل وترتيب ثم أقود سيارتي الى المستشفى أضغط على بوق السيارة فيهرول عم هريدى البواب ويفتح البوابة الحديدية التى لم يتم طلاؤها بعد. أوقف السيارة امام باب المستشفى وأصعد . آمر بالنقاشين فى مراحل مختلفة من العمل ، فى الطوابق الاولى يقومون بطلاء الطبقة الثالثة والاخيرة . يقفون على السلالم الخشبية المزدوجة وسطل الطلاء في يد والفرشاة فى اليد الاخرى . تغمس الفرشاة فى الطلاء وتتحرك بطول الذراع جيئة وذهابا تضفى على الجدار لمعة سميكة مبللة ، أما فى الطوابق العليا فلا زال العمال يصنفرون الجدران بأوراق الصنفرة الخشنة ويمعجنونها . الصبية الصغار يعدون الغراء على مواقد الكيروسين ويخلطون الطلاء فى الاسطل المعدنية . اراقب العمل

واتابع وادقق وابدى الملاحظات وانبه للعيوب وأطلب اصلاحهـــا وتلافيها . وعندما انتهى من المرور فى الطوابق العشرة انزل الى الغرفة المخصصة لي بالطابق الاول فتأتي لى زوجة عم هريدى بفنجان قهوة. احتسيه وادخن وانتظر ساعة أخرى أدون الاشياء المطلوبة منى ثم اركب سيارتي واعود الى البيت .

حددنا موعد الافتتاح بعد شهر من انتهاء بناء المستشفى . اشرف كمال مع عدد من الاطباء الشباب الذين يعملـون معـه على نقـل الاجهزة الجديدة التى وصلت من الخارج فى علب كرتونية مغلقـة • قاموا بفتحها وتجربتها وأشرفت أنا على نقل الاثاث وتأكـدت أن كل شيء أصبح فى مكانه بما فى ذلك الستائر واصص النباتات والزهور. وجهنا الدعوات لحفل الافتتاح وأرسلت تهنئة الى كمال بهذه المناسبة نشرناها في الجرائد الي جانب التهانى الاخرى التي بمث بها زملاؤه

فى صباح اليوم المحدد ذهبت الى الحلاق لعمل صبلغة شـعرى بنفس اللون البنى الفاتح الذى اعتدت عليه فى الســـنوات الاخيرة وصففه لى • وفى الرابعة بعد الظهر لبست ثوبا جديدا من الدانتيل الاسود وتزينت وتعطرت وتحليت بعقد الماس والاســورة والحلـق الماسيين • لبست حذاء من الستان الاسود والقيت نظـرة أخيرة على المرآة « ما رأيك ؟ » أجاب كمال « رائع ، الملكة فريدة فى زمانها لم تكن أكثر أناقة ! » ضحكت وقلت انه يبالغ ولكنى سعدت بالملحوظة •

ركبنا فى المقعد الخلفى وقاد بنا السائق السيارة الى المستشفى ... وكانت البوابة الحـديدية المطليـة حديثا بطلاء أسـود لامع مفتوحـة على مصراعيهـا يقف بجوارها عم هريدى وقد لبس جلبابا رماديا جديدا وعمامة بيضاء ناصعة . بداخـل المستشـفى وجدنا عددا من الاطباء والممرضات وزينب ومجدى وسعد • سألت عن سوسن « كانت هنا ، ربما نزلت الحديقة » ثم رأيتها ، صعقت ! كانت البنت المجنونة قد أتت بالصندل وفستان قطنى من الفساتين التى تذهب بها الى الجامعة . انتحيت بها جانبا ووبختها قلت « عودى الان فورا الى البيت غيرى ملابسك وارجعى ! » تركتها وذهبت لا وقت لدى للتعامل مع جنونها . لماذا لم تفعل كزينب ؟! جاءت زينب بثوب من الحرير الطبيعي الكحلي مفتوح النحر وبلا أكمام يبرز بياض بشرتها وكانت تتحلى بعقـد من اللؤلؤ الحر يناسب دكنة الثـوب ، بدت جميلة وراقية ، تشرف .

بدأ الضيوف يتوافدون ثم وصل المحافظ فالوزير وبدأ كمال يريهم أقسام المستشفى وتجهيزاتها ورحنا ننتقل من طابق الى طابق ومن حجرة الى حجرة وعلق الوزير ضاحكا « ذوق خديجة ملموس في كل ركن ! » الوزير صديق قديم كثيرا ما دعوناه الى العشاء فى بيتنا قبل أن يصبح وزيرا . كمال يقول انه طبيب متوسط الامكانيات ولكنه ماهر جدا فى العلاقات العامة .

فى السادسة الا خمس دقائق كنا فى طريقنا الى « التراس » لتناول الشاى . قال المحافظ عندما وصلنا « ولكنه أكثر من مستشفى انه مزيج من مستشفى وفندق فاخر ! » فضحك كمال وقال «هذه أفكار خديجة » ابتسم لى المحافظ فرددت بالابتسام . كان المقهى جميلا فعلا على سطح المبنى تحيط به من ثلاث جهات أصص من زهور الفل والبانسيه موضوعة فى حوامل مستطيلة من البلاستيك المثبتة بمحاذاة السور . وكانت الموائد الصغيرة قد أزيحت جانبا ووضعت بدلا منها مائدتان كبيرتان على كل منهما مفرش أبيض . واحدة منها تحمل الفناجين والاطباق والسكريات واللبانات واطباق بها أكياس الشاى والقهوة والثانية عليها قطع الحلوى والمملحات وكان هناك أربعة شبان يلبسون سترات بيضاء يقومون على خدمة الضيوف .

فى السابعة والنصف ودعنا اخر الضيوف وقال كمال انه بامكاننا أن نشرب فنجال قهوة فى هدوء قبل أن ننتقل الى الفندق للعشاء . قالت زينب ان كل شىء تم بأفضل شكل ممكن فعلق مجدى ضاحكا «طول عمرى اقول ان خديجة مستبدة رائعة ! » ضحك كمال وزينب ولكنى لم أضحك فهل قصد مجدى الاطراء أم الذم ؟ قال كمال موجها كلامه لسوسن التى كانت قد عادت بثوب لائق « لا أدرى ياسوسن لماذا لا تتزينين ، شىء بسيط من الزينة يجعلك كالاميرات » وضحكت « ولكنى سأكون محامية وليست أميرة !. هل رأيت أميرة تلبس روب المحاماة ؟! » قال لها وهو يضحك ان لسانها طويل فأجابته مداعبة «وهذه أيضا من صفات المحامين !» سوسن بحاجة لرقابة مستمرة. لو تركت لشأنها لاصبحت كالهيبيين مهوشة الشعر رثة الثياب. ابوها على حق، حين تعتنى بملابسها يصبح واضحا انها بنت ناس ولكنها عنيدة. قال كمال لسعد «كان حلمى دائما ان ابنى هذا المستشفى . فى الخمسينيات كنت شابا ولم يكن لدى لا الاسم الذى يسمح ولا المال الذى يكفى . وفى الستينيات طلعوا علينا بموال الاشتراكية فلم يعد الواحد منا يأمن على الخاتم فى أصبع زوجته ثم أنقشعت الغمة وعشت لاحقق حلمى . حين تتخرج من كلية الطب ياسعد

وأراك تدير هذا المستشفى ساكون قد حققت كل شيء • ساعتها أضع رأسى في هدوء وأموت مرتاحا » احمر وجه سعد وعاتبت كمال على هذا الكلام الحزين الذى لا داعي ولا معنى له • قلت وأنا أنظر لساعتى أن علينا التوجه الى الفندق لكي نكون باستقبال ضيوفنا •

أنا وكمال وسعد ركبنا سيارتنا السوداء التى يقودها السائق اما زينب وسوسن فذهبتا مع مجدى فى سيارته . عندما خرجنا من البوابة الحديدية رفع عم هريدى يده بالتحية رأيناه يغلق البوابة بالسلسلة الحديدية •

ينساب الطريق لعدة كيلو مترات ثم يزدحم وعندما نصل مصر القديمة يختنق • يتحرك صف السيارات الطويل فى بطء ثم يتوقف ثم يعود يتحرك كزاحفة معاقة . النيل عن يسارنا غارق فى الظلام تحدد ضفتيه أضواء الكورنيش ومساكن جزيرة الروضة • وعن يميننا صف الحوانيت الصغيرة الرثة وبعض المقاهى . يبقى الطريق مزدحما حتى نصل الى كوبرى الملك الصالح نعبره ونواصل عبور شارع الروضة الى كوبرى عباس فميدان الجيزة وفقط عندما نقطع النفق يخفف الزحام ويتمكن السائق من قيادة السيارة بسرعةعادية. الشارع واسع تنساب فيه حركة المرور حتى تبدو لنا الاهرام كتلال داكنة فى الليل. ينحرف السائق يمينا وبعد دقائق يتوقف امام الفندق الكبير بجوارنا يتوقف مجدى بسيارته. ننزل ونقترب من الباب الزجاجي فينفتح آليا • ندخل الى حيث الهواء المكيف والبرودة المنعشة •

اقول انني سوف ادخل الى دورة المياه لاصلاح زينتى «وأنا أيضا» تقول زينب وتصحبنى. ندفع الباب الكحلى المثبت عليه شكل معدنى لوجه امرأة نتجه الى الاحواض اولا . اغسل يدى وأبلل منديلا ورقيا أمسح به وجهى • تحذو زينب حذوى • ثم ننتقل الى المرايا • تجلس كل منا أمام واحدة وتفتح حقيبة يدها وتخرج عدة زينتهـــا ، كريم الوجه والبودرة وأحمر الشفاه والكحل وظل العينين ومزيل العـرق والعطر • نتزين ونصفف شعرنا ونتعطر ثم ندفع الباب الكحلى ونخرج لنلحق بكمال وسعد ومجدى وسوسن وننتظر معهم الضيوف •

ضيوفنا ستة الدكتور سالم وزوجته وابنتهما ، الدكتور منير الذى عاد مؤخرا من السعودية وزوجته وطبيب شاب يحبه كمال كثيرا ويقول أنه ممتاز اسمه هلال . وصل الدكتور سالم فى موعده بالدقيقة . رأيته عبر الباب الزجاجى يقترب بخطوته الثقيلة متكئـا على ذراع زوجته . قال وهو ينحنى ويقبل يدى كعادته «أهلا بالملكة» ضحكت وسلمت على زوجته احسان وقبلتها أما راندا فضممتها الى صدرى وأنا

اقول اننى كل مرة أراها أجدها كبرت قليلا واحلوت كثيرا • لرندا ذكاء أبيها وجمال أمها ورقيها فى الهندام والسلوك وأنا أحبها كثيرا •

لم ننتظر طويلا . جاء الدكتور منير وزوجته فى نفس الوقت مع الدكتور هلال . كنت أعرف منيرا جيدا ولم اكن رايت هلالا سوى مرتين . اما زوجة منير فكانت المرة الاولى التى كنت أراها . فاجأتنى بثوبها المقصب اللامع وغطاء راسها الاشبه بعمامة مطرزة عليها وردة هائلة على جانبها الايمن خيوط القصب . التقت عيناى بعينى زينب ولكنى تمالكت نفسى وابتسمت مرحبة وأنا أدعو الجميع للطابق العاشر حيث المطعم •

وجدنا المائدة بانتظارنا تحمل بطاقة الحجز وعليها مفرش فستقى منشى وفوط بنفس اللون مطوية طويات صغيرة طولية ومثبتة من أسفل كل بحلقة فضية ومنشورة من أعلى فى شكل مروحى • الاطباق والاكواب والفضية منسقة بالشكل اللائق يتوسطها مزهريتان بللوريتان بكل منهما وردة بلدية حمراء وبينهما شمعدان من فضة به ثلاث شموع مضاءة • وكانت المائدة ملاصقة للمربع المخصص للرقص والعرض الفنى • جلسنا ، كمال على رأس المائدة وعن يمينه الدكتور سالم وعن يساره أحسان ، بجوار الدكتور سالم جلست زينب فالدكتور منير ثم سوسن فالدكتور هلال • وبجوار احسان جلس مجدى فزوجة منير ثم سعد فراندا وجلست انا على الراس الاخر للمائدة . جاء النادل بعصير البرتقال ثم وزع علينا قائمة الطعام لنختار ، اخترنا • ضوء خافت وعزف ناعم والدكتور سالم يقول : « أحسنت يا خديجة الاختيار » ثم يضحك « ولكن قولوا لى هل هى مؤامرة تجلسونى فى أقصى مكان ممكن عن خديجة ؟! » الدكتور سالم راقى ومهذب تعلم فى أوروبا وظل محتفظا رغم سنه بالسلوك الاجتماعى المنمق • يحيى النساء بتقبيل ايديهن ويعرف كيف يقول لهن كلمات الاطراء الرقيقة واحسان راقية مثله تعرف كيف تلبس وكيف تضع المساحيق ، كيف تتحدث ومتى تتحدث لو تطيع زوجة منير بشىء من أناقتها . كدت أضحك من هذه الطاقية التى وضعتها على راسها ومن الاحمر المؤذى التى صبغت به شفتيها . اتى النادل بالطعام . ترى أين ذهب مجدى؟! نأكل ، عاد مجدى وبدا هو أيضا يأكل •

قال الدكتور منير انه سمع أن فؤاد سراج الدين قدم طلبا لتشكيل حزب الوفد من جديد قال كمال ضاحكا « وهل ما زال به رمق ؟! » فاعترض الدكتور سالم وقال بجدية شديدة « لا تخطىء يا كمال انه الوحيد المؤهل لقيادة البلاد » • ضحكت سوسن فسألتها بصوت

هامس « لماذا تضحكين ؟ » فقالت « تذكرت شيئا مضحكا » واصل الدكتور سالم « لو سمح السادات بتكوين حزب الوفد يكون أثبت أنه ديمقراطى فعلا ويكون حقق للبلد ثلاثة انجازات عظيمة : الانفتاح والديمقراطية والانتصار على اسرائيل فى حرب أكتوبر » فقال الدكتور منير نسيت انجازا آخر يا دكتور : «طرد الخبراء السوفييت من مصر» وقال كمال « باختصار أعاد مصر الى الدنيا • كان الاخر قد دفنها بالحياة ! » هلال ينظر الى سوسن نظرات مختلسة ، ألاحظ ذلك • يقول عنه كمال انه شاب ممتاز ، خجول وقليل الكلام ولكنه جراح موهوب وابن ناس • راندا تتحدث مع سعد بطلاقة وبساطة ، أحب هذه البنت ، تابعت نموها منذ كانت طفلة فى الخامسة ، كانت دائما ذكية ولطيفة المعشر • يحتل العازفون أماكنهم ويبدأون فى عزف موسيقى راقصة • قام بعض الجالسين للرقص • وقال الدكتور سالم وهو يضحك « قم ياكمال أرقص مع خديجة والا قمت أنا » وكان يمزح لانه يمشى بصعوبة متكئا على عصاه أو مستندا الى ذراع احسان فقال كمال « منذ شهور أكملت الستين ، راحت على يا دكتور سالم •• قم أنت ياسعد أرقص مع راندا » قام سعد ليراقص راندا • وقال مجدى بشكل مفاجىء « وأنا سأرقص مع خديجة ! » وتطلعت اليه باندهاش ولكنه قام من مقعده ووقف بجوارى وأمسك بيدى فقمت • قلت له وأنا أتبعه الى دائرة الراقصين « ألم يكن أنسب أن تطلب زينب للرقص أولا ؟ » فأجاب « سأرقص معها بعد ذلك » يحيط مجدى خصرى بذراعه اليسرى ويضع يده اليمنى على كتفى ، يراقصنى ويقود خطوتى بقوة ويسر • وجهه قريب من وجهى ، أقرب مما ينبغى • أشعر بأنفاسه • أسأله « هل شربت يا مجدى ؟ » قال « ماذا أفعل ان كنتم بخلاء ؟ لا تقدمون لضيوفكم مشروبا ؟! » قلت « لو عرف كمال انك تغيبت عن المائدة لتذهب الى البار لغضب منك » قال وهو يضحك «هذه أول مرة أرقص فيها معك ، هل تعرفين ذلك ؟» قلت وأنا أبتسم « اعرف ! » وهل تعرفين انك أجمل امرأة رأيتها فى حياتى ؟ » تركت يده وقلت له بصرامة « مجدى أنت سكران ! » فضحك وقال باحتجاج « وأقول هذا الكلام لانى سكران ؟! حرام عليك • هذا رأيى منذ ثلاثين سنة منذ رأيتك تتزينين للقاء كمال يوم جاء لخطبتك وقالت لى أمك روح ياشاطر عند جدتك ولما روحت بكيت وقلت لجدتى اشمعنى أحمد يقابل العريس ويجلس مع خديجة وهى جميلة هكذا ، ساعتها ضحكت جدتى منى تماما كما تفعلين الان » ضحكت ولكن مجدى لم يضحك وشعرت بذراعه تلتف على خصرى بقوة أكثر ، كان جسده

أقرب مما يجب • قلت « يكفى يا مجدى ، لنعد الى مقـاعدنا » قال « ولكنني اريد أن أرقص معك ! » قلت « وأنا أريد أن أعود الى مقعدى!» ولم انتظر . خرجت من دائرة الراقصين وتبعني . هل مجدى ثمل أم أن هناك ما يربكه ويجعله هشا ؟ هل لا تعطيه زينب ما يحتاجه ؟ انه مرتبك ومربك •

لم يطلب هلال سوسن للرقص بل طلبها سعد ولم يطلب مجدى زينب فقلت بصوت عال : « قم يا مجدى ارقص مع زوجتك » فقام •

وعندما انتصف الليل قامت فرقة العازفين المصـاحبة للرقص الغربى وحلت محلها فرقة شرقية لصاحبة البرنامج الفنى • قام مجدى فلحقت به وقلت له بصرامة « لو ذهبت الى البار مرة أخرى فسأقول لكمال ، وقد يوبخك أمام كل المدعـوين ! » فأجاب « خـديجة لماذا لا تتركيني وشأنى ! » وتركني وذهب •

ظهرت الراقصة وبدلنا مواقع مقاعدنا قليـلا حتى نتمكـن من المشاهدة • للراقصة شعر أسـود طويل يصل الى منتصف ظهـرها ووجه مثقل بالمساحيق وثوب قماشه لامع وسميك فيما يغطى الثديين والردفين أما ما عدا ذلك فغلالة رقيقة تشف عن تفاصيل الجسـد • ترقص حافية القدمين على ايقاع الطبال وضارب الدف • تبرز الساق اليمنى من أعلى الفخذ حتى القدم العارية من تحت ثنيات الثوب تدق الارض بحركة تواكب اهتزاز الكتفين خضخضة الثـديين وتقـوس الذراعين ولحم البطن العارى يتموج ويرتج . قال كمال « اول مرة شاهدت فيها راقصة بلدية أصابني الذعر !» ثم وهو يضحك «مارأيك ياسعد ؟! » فتمتم سعد بشيء غير مفهوم واحمر وجهه • قالت زوجة الدكتور منير « الرجال يحبون الرقص البلدى لان عيونهم فارغة !» فلم يعلق أحد على كلامها • هذه المرأة تكسف فى لبسها وحديثهـا • تقترب الراقصة منا وتصعد فوق مائدتنا وترقص عليها ويتطاير ذيل ثوبها الشفاف فى وجرهنا فنضحك ونصفق لها على الواحـدة والنص وهى تهتز وتتمايل وتنثنى وتدور وتقفز وتلف وتترجرج فى حسية بالغة . ثم قفزت الراقصة بليونة من فوق مائدتنا وانتقلت الى مائدة أخرى وقالت احسان « أين ذهب مجدى ؟! » ضاعت فرصته فى المشاهدة وقال الدكتور سالم « هذه الراقصة موهوبة » ثم وهو يكلم راندا مبتسما « ما رأيك يا راندا ، سندعوها لـكى ترقـص فى فرحك ! » فسألت زوجة الدكتور منير « هل راندا مخطوبة ؟ » فضحك الدكتور سالم « ليست مخطوبة » فضـحكت أنا وقلت « ألف من يتمناها وأنا أولهم ، ما رأيك ياراندا ؟! » فابتسمت راندا واحمر وجهها وكذلك سعد أحمر وجهه ولكنه لم يبتسم •

لم يظهر مجدى الا ونحن على وشك المغادرة ولاحظت احتقان وجهه « هذا المجنون ، أسرف فى الشراب ، فكيف يقود السيارة الان ؟ » .
دعنا ضيوفنا وقد تجاوزت الساعة الثانية بعد منتصف الليل كان السائق فى السيارة قد أغفى مستندا برأسه الى المقود . دق له سعد على نافذة السيارة فانتبه ونزل ليفتح لكمال الباب . قلت لكمال: « يبدو أن مجدى متعب ، سأقود أنا سيارته تعالوا أنتم ورائى حتى بيت زينب فاركب معكم » ركبت سوسن وسعد مع كمال والسائق وقدت أنا سيارة مجدى . جلست زينب بجوارى ومجدى فى المقعد الخلفى . كانت زينب تلتفت اليه وتكرر السؤال عن حالته ولماذا لم يقل انه متعب . قلت : « ليس متعبا ، السيد المحترم كان يتركنا ليذهب الى البار ويشرب ، انه سكران ولو تركته يقود السيارة فستنتهى الليلة بكارثة » قال مجدى : « خديجة أنا احبك فلماذا تكرهيننى ؟! » زجرته زينب أما أنا فلم أجبه .

لا وقت لدى للراحة ، لا وقت ! ياخذ المستشفى كل وقتى . اذهب اليه كل صباح ولا اعود الا بعد الظهر واحيانا أعـود فى المساء . اشرف على كل شيء ، الأكل والنظافة والنظام ورعـاية المرضى . فقط يوم الجمعة لا اذهب . اصفف شعرى عنـد الحلاق ثم تاتى زينب وأولادها ونجتمع على مائدة الفداء . كمال يقول « أنت الكل فى الكل » فى المستشفى أيضـا يقـولون ذلك . أحب ان يسير العمل بانضباط الساعة ودقتها . المستشفى مؤسسـة كبرى لها اسمها وسمعتها والمرضى يأتون اليها ليس من مصر وحدها بل من كل البلاد العربية . ابنة رئيس الجمهورية وضعت عنـدنا ورئيس الجمهورية زارنا وتعرفت عليه وقدمت له الشـيكولاته وشربت معه القهوة ووجدته رجلا لطيفا جدا ومهذبا واسـتغربت ان يكون له أعداء ومعارضون . اميرة سـعودية أجريت لها جراحة ناجحة عندنا وشخصيات كبيرة ومتنفذة تاتى عندنا لأن الكل يعرف انه فى الخدمة الطبية وفى النظافة والترتيب نحن الأكثر تفوقا . يقولون اننى صارمة ولكن الادارة تتطلب ذلك . لا اطيق رؤية ممر غير نظيف ولا ممرضة مهوشة الشعر ولا عاملا يأتى متأخرا خمس دقائق . نحن ندفع أعلى الرواتب ومن حقنا ان نحصل على افضـل نوعية من العاملين . المهمل انهى خدمته ، بلا طول كلام ، الصرامة لازمة ونتائجها واضحة والذكاء ضرورى كذلك الحساسـية فى التعامل : وردة وكعكة صغيرة مع بطاقة تهنئـة للأم صبيحـة يوم الولادة ، زيارة سريعة مع كلمة طيبةللمريض بعد العملية . منذ افتتحت المستشفى لم تحدث مشاكل ، المشاكل أنهيها قبـل أن تصبح مشاكل . مرة واحدة فقط لم اتمكن من محاصرة الامر . مريض وقح أجريت له عملية وامضى بالمستشفى عشرة أيام كاملة عند المغادرة طلبوا منه عشرة آلاف جنيه فقال « لماذا ؟! » أوضحوا له ان المبلغ مقابل الفحوصات والتحاليل التى اجريت له قبـل العملية وبعدها والعملية نفسها والاقامة والرعاية الطبية . علا صوته واتهمنا بالسرقة فطلبنا له الشرطة . يجب الا نتعامل مع هذهالنوعية من الناس هذا المستشفى محترم ولابد ان يقتصر على المحترمين ومن كانت امكانياته المادية لا تسمح فليبحث لنفسه عن مكان آخر .

اننا نصرف علي المستشفى بسخاء فهل نعمل بلا مقابل ؟ والأموال الطائلة التي وضعها كمال فى المشروع هل تذهب كانها ضاعت منه فى الطريق . اليس من حقه أن يسترد شيئا منها ؟! لسنا ملجأ ولا مشروعا خيريا . اننا مستشفى محترم للناس والمحترمين .

قلت لكمال ان اهلنا ، اهلى واهله ، قد دعوا لنا وان الله يوفقنا فى كل شىء والمستشفى يحقق نجاحا مدهشا ليس فقط فى السمعة والمكانة ولكن ايضا فى الدخل الذى يدره . وسعد الله هداه والتحق بكلية الطب وزينب سعيدة مع مجدى والصغيران ممتازان وسوسن تخرجت من كلية الحقوق . علينا أن نذهب للعمرة ونزور قبر الرسول ونصلى فى الحرم ونسجد حمدا لله الذى لم يبخل علينا بأى شىء . نخطب لسعد ونزوج سوسن وبعدها نسافر للعمرة أو ربما حتى للحج « مارايك فى راندا لسعد ؟ » قال « وما داعى الاستعجال ، اتركيه حتى يتخرج من الجامعة » فقلت له « ان راندا لن تنتظر وقد يخطبها غيره فنندم على تأخرنا » « ولكننا لانعرف رأى سعد » اقنعت كمال بأن يترك الامر على ، لن يقول سعد لا ، ولو قالها فلن يكون لديه سبب سوى العناد فراندا جميلة وبنت ناس ولا يمكن لعاقل الا ان يتمناها .

لم يبد على سعد الحماس ولكنى اقنعته وذهبت مع كمال لزيارة الدكتور سالم وطلبنا البنت . قرانا الفاتحة واتفقنا على كل شىء .

سعد وردتى وهو الأقرب والأغلى والاحلى . فى ليلة خطبته كنت اتطلع اليه فتملأ عينى الدموع وتأتينى صورته وهو قطعة لحم صغيرة ودافئة بين ذراعى واكاد اشعر بفيض الحليب فى ثديى وبالفم الصغير يرضع منه . ليسعدك الله ياسعد ويملأ ايامك بالفرح وتصبح اعظم طبيب فى البلد .

عندما البس سعد راندا خاتم الخطبة وخاتم الشبكة خلعت انا عقد الماس الذى كنت اتحلى به واحطت به عنق راندا . بكت احسان تأثرا وقالت أن هذا كثير فاجبتها وانا ابتسم ان راندا ست البنات ولا شىء يكثر عليها .

لم يبق اذن الا ان ازوج سوسن . كنت افكر فى ذلك وانا فى طريقى الى المستشفى وعندما وصلت قالتلى سكرتيرتى ان « فؤاد بيه » فى انتظارى فى المكتب . توقعت أن تكون زيارة لعمل بعض الفحوصات . كان الرجل الذى يشغل منصبا كبيرا فى الدولة قد دخل المستشفى قبل فترة واجرى له كمال جراحة ثم وضعت

ابنته طفلها عندنا فأصبحت تجمعنا علاقة ود وتزاور عائلى .

دخلت المكتب فقام ليصافحني . كان طويلا يميل الى الامتلاء يلبس كعادته قميصا أبيض وبدلة داكنة من ثلاث قطع وربطة عنق حريرية ، كان هيئته تشي بالاهمية والاحترام . بدأ بالاعتذار لانه جاء بلا موعد قال « انتم ناس طيبون . الدكتور كمال طبيب عظيم وانت سيدة فاضلة . فكرت ان أحدث الدكتور كمال فى الأمر ثم عدلت وقلت انك قد تكونين اقــدر على التصرف » أتى الســاعى بالقهوة فتوقف فؤاد بيه عن الكلام . « اقــدر على التصرف ؟! » استوقفتني العبارة وبدات اتوجس . كنت اظن الرجل جاء قاصدا خدمة . أغلق الساعى الباب فواصل فؤاد بيه « باختصار ياسيدة خديجة كنت مع صديق حميم بوزارة الداخلية وبالصدفة جرنا الكلام الى الحديث عن الدكتور عبد الموجود اسماعيل وهو أستاذ فى كلية الحقوق . قال صديقى أن هذا الاستاذ مشاغب ولن يردعه ســوى الاعتقال فقد جمع حوله مجموعة من الشباب كانوا طلابه وهو يلتقى بهم بانتظام بشكل مشبوه ولذلك فقد ادرج اسم الاســـتاذ وكل المترددين عليه فى قوائم بوزارة الداخلية » كنت أشعر بغصةفى حلقى وجفاف فى فمي واعرف ما الذى سوف يقوله الآن : « ولقد ذكرلى صديقى بعض أسماء هؤلاء المحامين وأدهشنى جدا أن أجد اســم سوسن ابنتك بينهم . تصورت ان هناك تشابها فى الاسماء ولكن صديقى أكد لى أنها سوسن ابنة الدكتور كمال وانهافتاة مشــاغبة مشاكلها كثيرة منذ كانت طالبةبالجامعة ولها ملف بالمباحث . طبعا رجوت صديقى ان يعمل على شطب اسمها « او اخفاء الملف لانه فى النهاية هذه البنت ابنتنا . ساكلم اهلها ليتصرفوا معها » كان يجب الآن أن أقول شيئا ، لم اكن أعرف ما الذى يمكن ان اقوله . شكرت فؤاد بيه بحرارة وقلت له ان تصرفه كرم لن أنساه طول حياتى . سلمت عليه وودعته حتى باب المستشفى وانا أكرر شكرى وامتنانى وأؤكد له أن البنت طائشة وغير مسئولة وانى ساعاقبها وأؤدبهــا وأعلمها كيف تتصرف كأولاد الناس المحترمين .

غادر الرجل وعدت الى مكتبى طلبت فنجان قهوة وقلت للسكرتيرة اننى لا أريد ان أقابل أحدا . كان على ان استجمع نفسى قبل ان افعل أى شىء .

سوسن مجــرمة خــدعتنى وخانت ثقتى فيهــا أوهمتنى أنهــا ارتدت عن عنادها وسلوكها المراهق وهى على حالها لم تتغير . قال فؤاد بيه ان مشاكلها كثيرة من أيام الجامعة . وزارة الداخليـــة

تعرف عن ابنتي اكثر مما اعرف . ماشاء الله وانا آخر من يعلم ! لو صفعتها الف مرة ماشفيت غليلى . تقوم بنشاط مشبوه ؟! انها مجنونة .. انانية لا تفكر فى سمعتها ولا فى سمعة ابيها . ماذا يقول الناس : ابنة كمال صفوت على علاقة بالصعاليك الذين لا عمل لهم سوى معارضة الحكومة . ومن اين اتت بهذا الطيش ؟! لم يحدث ابدا فى عائلتنا ولا فى عائلات المعارف ان خرجت بنت بهذا الشكل عن الصراط المستيقم . لابد ان اعرضها على طبيب نفسى قد تكون مختلة عقليا . فماذا نفعل فى هذه الحالة ؟ هل نودعها مستشفى للأمراض العقلية ؟ لا داعى للفضائح ، من يتزوجها بعد ذلك ثم ان الأمر قد تنسحب عواقبه على خديجة ابنة زينب وبنات سعد فى المستقبل . ولكنها ليست مجنونة انها ذكية وربما كانت اكثر اولادي لماحية فما الموضوع اذن ؟ طيش ؟ عناد عدم تقدير للمسئولية ؟ كانت مراهقة وكان ابوها يقول لى مرحلة وتمر ولكنها طالت ، طالت بمالا يحتمل . عندما كنت فى سنها كنت مسئولة عن بيت وزوج وثلاثة اطفال فماذا افعل ؟ هل احبسها فى البيت ؟ انها فى الخامسة والعشرين .. فكيف احبسها فى البيت ؟! سأقول لها ياسوسن اما ان تحترمى هذا البيت الذى تعيشين فيه وتحترمى أهله وسمعتهم أو تتركيه ... وماذا لو تركته ؟ كيف تتركه ؟ هل هى فوضى ؟ اليس لها اب وام ومجتمع يحكمها أ ليست حرة تفعل ما تشاء . انها ابنتى وعليها أن تطيعنى بالشرع والعرف والقانون !.

وماذا اقول لكمال ؟ لم تعد صحته كما كانت وعلينا مراعاته . قد يصاب بذبحة من خبر كهذا . انه مستنير ومتزن ، هذا صحيح، ولكن اى اتزان هذا الذى لا يصدمه معرفة أن ابنته تصادق اشخاصا على قوائم المشبوهين الذين تريد الحكومة وضعهم فى السجن ! لو انه جبل لتفتت من الخبر وهذه ابنته ، سمعته وشرفه وعرضه ! لن اقول له ، سوف اتصرف انا معها .

لاحظت ان المنافض الكبيرة الثلاث التى امامى امتلات باعقاب السجائر وكذلك الفناجين الاربعة التى شربت فيها القهوة . غادرت المستشفى وركبت سيارتى عائدة الى البيت .

عندما عادت سوسن الى البيت لم اقل شيئا ، تركتها تقبل وجنتى كعادتها وقلت دون ان ارفع راسى لانظر اليها اننى اريد ان اتحدث معها بعد الظهر . قالت « نؤجله للمساء لأن لدى مواعيد » فاجبتها بقطع ادركته « الغى مواعيدك ، انه امر ضرورى ! »

وجلسنا لتناول الغداء . لم اخاطبها ولم ارفع عيني في اتجاهها . ولما ذهب أبوها الى عمله ناديتها الى حجرتي وجلست على أحد المقعدين الوثيرين المقابلين للسرير وطلبت منها أن تجلس على المقعد الثاني :

ــ اسمعي ياسوسن لقد عرفت ان الدكتور عبد الموجود اسماعيل شخص سيء ومكتبه مشبوه وباختصار اريدك ألا تتصلي به ولا بأي شخص يكون على علاقة به .

ــ لا افهم

ــ زارني اليوم صديق مرشح للوزارة وله معارف واصدقاء من الوزراء وقال لي بوضوح ان الدكتور عبد الموجود وكل من حوله لهم نشاط ضد الحكومة وأن الحكومة لن تسكت على الامر وقال ان اسمك وأسماء زملائك مسجلة في قوائم في وزارة الداخلية وانهم قد يقبضون عليكم في اىّ وقت .

ــ ولكن ما علاقة هذا الكلام بما قلتيه من ان عبد الموجود اسماعيل سيء السمعة ؟

ــ العلاقة واضحة كالشمس . الرجل سيء السمعة لدى الحكومة !

ــ عبد الموجود اسماعيل استاذ جامعي محترم وهو كاتب من . .

ــ لا أريد أن اسمع دفاعا عن هذا الشخص ولا أريد ان اناقش الأمر أصلا . أريد شيئا واحدا فقط : اقطعي كل علاقة لك بهؤلاء الناس .هل تفهمين ؟!

هذه البنت ليست بسيطة ولا سهلة انها تحدق في كأنني أطلب منها أمرا مستحيلا .

ــ اختاري ياسوسن اما انا او هم !

ــ ماما لماذا تعقدين الامور ؟

هذا النقاش يجب الا يستمر ، لصبري حدود ولا أريد ان اضربها قمت لاترك الغرفة وقلت وأنا اقف بالباب :

ــ اني اعطيك مهلة اسبوعا ليوم السبت . . السبت القادم انتظر اجابتك اما انا او هم . . . هل تسمعين ؟!

في اليوم التالي اتصلت بعبد الموجود اسماعيل وطلبت مقابلته. حدد لي موعدا فذهبت اليه . كان مكتبه مؤثثا ومرتبا بما ينم عن ذوق رفيع وفاجأني ذلك كما فاجأني الرجل نفسه الذى كنت اظنه اكبر سنا . كان في عمر مجدي تقريبا له جسم رياضي ووجه متسق القسمات وعينان ثاقبتان . قلت :

ـ هي المرة الاولى التى نلتقي

قال :

ـ قد لا تذكرين ولكنى قابلتك مرة فى المستشفى وكنت اعـود صديقا لي هناك .

ابتسم وابتسمت ثم مرت ثوان من الصمت . لابد من الدخول مباشرة فى الموضوع . قلت :

ـ يادكتور عبد الموجود ، اقصدك فى خدمة . انت استاذ ومرب وكاتب كبير تتمتع بسمعة ممتازة ولك مواقفك السياسية الواضحة ولكننا اسرة لم يكن لاى من افرادها علاقة بالسياسة . كان أبيرحمه الله صيدليا وزوجي الدكتور كمال صفوت جراح وزوج ابنتى مهندس وابنى فى كلية الطب وسيصبح طبيبا كأبيه . اننا نخدم بلدنا بعيدا عن السياسة . وعندما التحقت سوسن بكلية الحقوق لم اتصـور قط انها سوف تورط نفسها فى أى نشاط سياسى ولكنها تورطت وواضح انها الآن بعد تخرجها تزداد تورطا . أنت أستاذها ولقـد قصدتك لكى تنصحها او على الاقل تتركها وشأنها فهي بنت ونحن كأسرة لا نحتمل أن تدخل ابنتنا السجن او تصاب بأذى .

ـ هل طلبت منك سوسن ذلك ، هل جئت نيابة عنها ؟.

ـ جئت نيابة عنها لأنى أمها !

ـ لا افهم !

ـ أقصد اننى وأبوها وأخوها لا نريد أن يكون لها اى ارتبـاط بالسياسة ولا بأصحاب النشاط السياسى لأننا نخشى عليها .

هذا الرجل ثعلب مراوغ . تلمع عيناه ويتحدث ببرود :

ـ لم تعد سوسن صغيرة ياسيدة خديجة . اتركيها اذن تدير حياتها كما تريد ـ ابتسم ـ ابنتك محامية ، هل تريدين ان تدافع عن حقوق الناس وتفرط فى حقوقها ؟!

قررت ان أنهى اللقاء ، لا فائدة ، قلت وانا اقوم للمغادرة :

ـ ليس من حقها ان تؤذى نفسها وتؤذينا معها !

لم يكن هناك جدوى من النقاش ، انه رجل سيىء ، وقد يكون هو الذى ورط البنت فى العمل بالسياسة . ودعته بايماءة من راسى ، لم امد يدى لمصافحته . كان يجب أن اخيفه وارهبه واقول له ان اسمه على قوائم المشبوهين وانه قد يقبض عليه فى اية لحظة . لا يريد أن يترك سوسن وشأنها .. سأريه اذن !

طوال الاسبوع لم اكلم سوسن . كنت اتحاشى التقاء عيوننا ، لا انظر فى اتجاه تجلس فيه ، ان دخلت على فى غرفة تركتها كاننى لم ارها ، لا أسمع ما تقول ولو سمعت لا اعلق كاننى لم أسمع حتى كان يوم السبت . ناديت عليها وسالتها :

ـ ماذا قررت ؟

ـ لم أقرر شيئا

ـ سوسن أنا لا أمزح ولا العب قلت لك ان امامك اسبوعا للتفكير والاجابة فماذا قلت ؟

تنظر الي كأنها لا تخشاني ، كانها لا تهتم ، باردة بشكل مثير . اصرخ فيها :

ـ ماذا قلت ؟

تبتسم ابتسامة تكبر ثم تضحك :

ـ يا أمي ياحبيبتي لماذا لا نكف عن هذه المشاهد الميلودرامية الصارخة ، ما تفعلينه وما تطلبينه غير معقول . حتى عبارتك « اما أنا أو هم » . لا معنى لها !

هويت بكفي على وجهها مرة ثم اخرى . كان ذلك أكثر مما يحتمل برودها ، صفاقتها ، ابتسامتها الوقحة كلها أثارتني وجعلت الدم يغلي فى راسي ، امسكتها من كتفيها ورحت أهزها وأصرخ فيها واسبها وابصق على وجهها . تخلصت مني وقفزت باتجاه الغرفة وهي تقول :

ـ انك تريدين قتلي ، هل تعرفين ذلك ؟! انك تريدين قتلي ، هل تعين ذلك ؟!

كانت هي ايضا تصرخ الآن ثم ذهبت . سمعت خطواتها وهي تركض الى غرفتها ثم سمعت طرقة باب البيت . ناديت سعدا سألته عنها فقال انها خرجت ثم « ماما لماذا تعاملين سوسن بهذه القسوة ؟ » فصرخت فيه قائلة : لا اريد ان أرى أحدا ، فتركني وذهب فانهرت على المقعد وانفجرت فى البكاء .

لا أدرى كم من الوقت مضى ولكني انتبهت لنفسي عندما وجدت سعدا يضع يده على كتفي ويطلب مني ان أقوم لاغسل وجهي . ساعدني على القيام ثم أخذني الى الحمام محيطا كتفي بذراعه وظل واقفا بالباب حتى غسلت وجهي وجففته . قال : « سأصنع لك قهوة » وعندما عاد كنت أبكي من جديد . قالت انني اريد قتلها وأنا امها التي حملتها وهنا على وهن وولدتها فى العسر وسهرت الليالى ملهوفة ارضع واضم واحنو واربى واكبر فتقول انني أريد

قتلها . كانت الكلمة كالسكين تطعن فى قلبى . وهى ابنتى ، ابنة حشاى التى تفعل كل ذلك فى . مسحت دموعى وامسكت بالتليفون واتصلت بزينب وحكيت لها وبكيت .

لازمت الفراش عدة أيام . كنت منهارة انشج بلا انقطاع كلما فكرت أن ابنتى ، أقرب الناس الى ، قد غدرت بى . « ساموت يازينب ، لقد قتلتنى اختك بأفعالها » قالت : « بعد الشر ياماما ، لا تقولى هذا الكلام » وبكت هى ايضا .

لم يكن الحزن وحده هو الذى يبكينى بل الشعور بالحيرة والعجز امام السؤال المعلق . كلما لاحت لى اجابة أو مخرج وجدته ينتهى بحائط يسد على الطريق ، فابكى . ماذا يقول الناس عنى وعنها تركتها أمها بلا ضابط ، تركتها تلعب بالنار حتى احترقت ؟! ماذا يقولون حين يصبحون يوما ليجدوا ابنة كمال صفوت وراء القضبان مع المجرمين والقتلة ؟ ماذا يقولون حين يعلمون انها وهى بنت الناس تعيش بمفردها كأنها مقطوعة من شجرة ؟ هل ارسل لها سعدا ليعود بها ، هل اذهب انا اليها أحايلها حتى تنصرف عن عنادها وهل أحسن معاملتها بعد أن اهانتنى وطعنتنى وقالت أننى أريد قتلها وفضلت على أناسا سيئى السمعة ؟ ماذا أفعل ومن استشير وانا لا أستطيع الحديث فى الامر مع أقرب الأقربين ، لا أستطيع ان أحكى لأحد أن ابنتى تركت البيت .

يقول لى كمال أنه لا داعى لهذه «المناحة» وانها أزمة عابرة تعود بعدها سوسن الى البيت فهى رغم عنادها فتاة عاقلة وسينتهى كل شىء على خير فأعجب ويتأكد لى أنه الذى أفسدها بتدليله . كلما قلت له ان ابنته عنيدة لابد من تلجيمها يقول اتركيها ، تركتها وهاهى النتيجة !

اخبرنى كمال ان سوسن زارته فى العيادة « ألم توبخها على فعلتها ؟ » قال : « عاتبتها ولكن حديثنا كان هادئا واتفقنا أن تعود الى البيت » كان كلامه مقتضبا ، لم يشف غليلى . سألته عن البنت كيف كانت تبدو .. وجهها ، ملابسها ، حالتها ، هل سألت عنى ؟ ولكن كمال كان مرهقا ولم تكن به رغبة فى الاستطراد فى الحديث قال وهو يغير ملابسه ويدخل الفراش :

ــ اسمعى ياخديجة ، العقل زينة والبنت لم تعد صغيرة ، انها فى الخامسة والعشرين قد تختلفين معها ، قد ترفضين سلوكها لكن ليس من الحكمة فى شىء ان تبصقى فى وجهها أو تضربيها .

ـ توقف وهو يحدق فيّ ـ لم تقولى انك ضربتيها واهنتيها . كان هذا اكثر مما يحتمل . قلت بصوت عال محتد :

ـ لم اقل لك ان فؤاد بيه زارنى فى المستشفى وقال انه عرف من اصدقائه أن الدكتور عبد الموجود مراقب هو وكل من حوله وانه قد يقبض عليهم فى أى وقت وان اسم ابنتك معـــروف فى وزارة الداخلية ، لم اقل لك ذلك كله لأنى خشيت عليك . كمال انت تدلل ابنتك ، دللتها الى حد الافساد والنتيجة واضحة !

جلس كمال على السرير واشعل سيجارة ومرت لحظات صمت حتى بدا وكانه سيقضى الليلة هكذا دون ان يتكلم ودون أن ينـام وأخيرا قال :

ـ ملعون أبو فؤاد بيه على عبد المقصود . المهم عندى هو علاقتى بابنتى وانا غير راغب ولا مستعد ان أفسد علاقتى بها مهمـا كان السبب .

ـ ولكنك بهذا الاسلوب تشجعها على التمادى فى الخطأ .

ـ انها ابنتك ياخديجة وانت تعرفينها ورايت بعينك عنـــدما قلت لها نحن ام هم تركت لك البيت . مادامت هذه هى ابنتنـــا فدعينا من هذه المواقف العاصفة ولنتقبل البنت كما هى !

قفزت من السرير وبدات أصرخ فى وجه كمال واقول له انه فقد عقله وانه يقصر فى واجبه كأب مسئول عن حماية ابنته . ما قلته كلام فارغ ، استـسهال .. قلت وانا أحدق فى وجهه :

ـ انا ياكمال لا استسهل ولا اهملّ فى تربية أولادى سأتصرف وسأربيها بالهدوء أو بالعنف ولكنى سأربيها ، فى كل الحالات !

هل هو الاطمئنان الى ان سوسن ستعود الى البيت أم الاحساس بسلبية كمال وضرورة اضطلاعى بالمسئولية ، لا ادرى أيهما ولكنى بعد هذه المواجهة العاصفة كففت عن البكاء نهائيا وفى صباح اليوم التالى واصلت حياتى العادية وعدت الى العمل بالمستشفى .

وعندما عادت سوسن الى البيت لم اكلمها . كنت أريدها أن تعرف اننى غاضبة وانها أخطات واننى أعاقبها . كنت اتحــاشى الانفراد بها واعمد عندما اتحدث مع زينب او سعد أن الح للفـدر ونكران الجميل والقسوة التى يمكن أن يتعامل بها الاولاد مــع أهلهم . الاحظ امتقاع وجهها فاقول ليست غبية ولا متحجرة انها تتلقى الدرس وتتعلم !

فاجأنى كمال بتذكرتى سفر الى أوربا بمناسبة العيد الثلاثين لزواجنا . فرحت كثيرا بالمفاجأة .

صحبنا الاولاد الى المطار وهمس كمـــال فى أذنى ونحن نودعهم « لقد كنت صارمة مع سوسن بما يكفى .. دعينا نسافر الآن والكل فى وئام ، لاجل خاطرى ! » احتضنت خديجة وكريم وقبلت زينب وسعدا ومجدى وسلمت على سوسن ، لم أقبلها .

حملتنا الطائرة السويسرية الى مطار زيورخ الذى قضينا فيـه ساعة ثم ركبنا طائرة أخرى الى جنيف وبعدها أوصلتنا سيارة أجـرة الى الفندق . دخلنا يتبعنا أحد العاملين يحمل حقيبتنا . سألنى كمال « ما رأيك ؟ » كان المكان لائقا تماما . بهو رحب يغطى أرضـــيته من الجدار الى الجدار بساط رمادى به تشكيلات زرقاء وتضيئه ثريات ضخمة من البللور الثمين . أعطى موظف الاستقبال مفتــاح الحجرة لكمال فصعدنا .

فتحنا الباب على حجرة فسيحة أنيقة الاثاث لها واجهة زجاجيـة تفضى الى شرفة تطل على بحيرة ليمان . دخل كمال الحمام ووقفت فى الشرفة أتأمل ماء البحيرة والمراكب السابحة فيها والنوارس . ثلاثون سنة مرت على زواجنا ، فكيف مرت ؟ يقولون « ما الـذى تفعلينـه ياخديجة للاحتفاظ بنضارتك ؟ » يضحكون « انك كالقطط تأكلين السنين وتنكرينها » فأضحك وأقول « أنا فى السادسة والاربعين ، لا أنكر . وحفيدتى خديجة فى الثالثة عشرة وبعد عامين أو ثلاثة أزوجها وأحمل بين ذراعى أبناءها ! » ثلاثون عاما مروا ولكن المدينة تعيد الايام حية وحاضرة كأنها لم تمض . البنت الصغيرة وقد عادت بلا ضفائر تركض مع عريسها ، تركض وراءه وتلهث انبهارا من حديثه ومعارفه ومداعباته حدقت فى الصفحة الزرقاء المتموجة فانبعثت الصغيرة التى كنتها فرحت أراقبها وأبتسم ، أبتسم كأننى أشاهد ابنتى أو حفيدتى صغيرة تشهق فى الحب كأنما غطتها فجأة موجة عالية ثم أطلت برأسها منها موزعة بين الدوار ونشوة اللعب ، مبللة مبتهجة وطفلة .

يقول كمال اننى فى الحب ملكة فأضحك ولا أقول له انه لم يعد فى الحب ملكا . انه فى الثانية والستين ولكنه طيب يحنو على ويعطينى

كل ما أريده ولا يقول لى ابدا : لا • خرج من الحمام ونادانى فدخلت أنا لاستحم حمام فسيح وجميل وبه مرآة تغطي حائطا باكمله . تحممت بالماء الساخن دون أن أبلل شعرى وعندما انتهيت وقفت أمام المرآة لأتنشف . ليس صحيحا أننى آكل السنوات بالبطن شيء من ترهل وبالثديين أيضا . ولكن هكذا ، لففت جسدي بالمنشفة الكبيرة، لا يبدو شيء من ذلك ، الجسد متماسك وامتلاؤه محبب . جلست أمام المرآة كحلت عينى وصبغت شفتي بحمرة قانية وتعطرت وصففت شعري ثم لبست ثوبا زيتونيا . قال كمال « تبدين كعروس ! » ضحكت ونزلنا للعشاء •

اقضى معظم النهار فى زيارة محلات الملابس ، احب الفرجة واحب الشراء . وبعد الظهر نتمشى على البحيرة ونتناول العشاء فى مطعم مختلف كل ليلة • يسحرنى هدوء المدينة ونظافتها • أقول لكمال « لماذا لم يخلق الله مصر بهذا الجمال ؟! » فيجيبنى مبتسما « ارادة ربنا ! » أقول « أحيانا تخطر لى فكرة مجنونة •• أن نركب للمستشفى عجلا وندفع به هكذا كما هو الى شاطىء ليمان •• وآتى بالاولاد ونستقر هنا فيقهقه كمال « فعلا فكرة مجنونة ! »

« خديجة محظوظة » قلت لكمال وانا أريه الثوب الذى اشتريته لها • ثوب من المخمل الثمين كحلى اللون يحيط بخصره حزام من الحرير اللامع ، كحلى بنفس لون الثوب وله ياقة من الدانتيلا المشغولة يدويا من خيوط دقيقة بيضاء • « انه غالى الثمن ، ولكنه جميل يليق بالاميرات ! » فردت أمام كمال كل مشترياتي الاخرى : ثوب لزينب، آخر لراندا ، سترة لسعد ، ربطة عنق لمجدى ولعبة لكريم . قال « وسوسن » قلت « لم أجد شيئا يناسبها ! »

قضينا عشرة أيام فى جنيف ثم ركبنا القطار السريع الى باريس • بعد أربع ساعات وصلنا العاصمة الفرنسية ونزلنا فى فندق بالشانزيليزيه يفوق الفندق الذى أقمنا فيه فى جنيف فخامة وثراء • باريس جميلة ومبهجة ولقد حلمت دائما بزيارتها • أحب المشى فى الشوارع التجارية وأحب المشاهدة ولكن المشى الكثير يرهق كمال فنضطر للجلوس بأحد المقاهى وأحيانا نأخذ سيارة أجرة ونعود مباشرة للفندق لذلك أفضل أن أتركه بالفندق وانزل وحدى لكي امشى كما يحلو لى • لحسن الحظ أن لكمال أصدقاء فى باريس يأتون الينا أو نذهب اليهم •

عدت من السوق فوجدت رسالة من كمال يقول لى فيها انه ذهب لشراء الجرائد ويطلب منى أن أنتظره « الامر هام • أرجو عدم الخروج

ثانية » صعدت الى الحجرة ووضعت أكياس المشتريات على السرير وغسلت يدى ووجهى ثم طلبت فنجان قهوة وجلست أدخن وانتظر . ترى ما هو الامر الهام ؟ من المؤكد انه لا يتعلق بالاولاد والا لما ذهب لشراء الجرائد وبقى ينتظرنى فى الفندق . تأخر كمال ، لماذا تأخر ؟! هل أصاب سوسن مكروه ؟ تركت الغرفة ونزلت الى الاستقبال ، انتظرت قليلا ثم تركت خبرا اننى فى المقهى . جلست بحيث أرى الداخل .

رأيته قادما وكانت الجرائد بيده . من وجهه عرفت أن شيئا ما حدث فقمت اليه . أخبرنى أن أحد معارفه كان يزوره وقال له ان الدنيا فى مصر « قايمة » وان السادات أصدر قرارات اعتقال شملت الآلاف بينهم جماعات اسلامية ورجال دين مسيحي وشيوعيون وناصريون ووفديون . قال « كل ذلك حدث منذ أكثر من أسبوع ولأننا لا نقرأ جرائد ، لم نعرف » .

ـ ولماذا لم تتصل بالقاهرة ؟

ـ قلت اشترى الجرائد لاعرف التفاصيل لانه ما دام الوضع كذلك فقد لانستطيع الاستفسار عن الامر بشكل مباشر عبر التليفون .

ـ أى أمر وأى استفسار نحن نريد الاطمئنان على الاولاد . فقط ! لا علاقة لنا بالسياسة ولا بالجماعات الاسلامية أو المسيحية أو العفاريت الزرق ! الاولاد كل ما يهمنا ، سأذهب للاتصال .

كنت نافدة الصبر وحادة ، وقلقة على سوسن .

ـ انتظرى دقيقة سآتى معك .

طلبت من موظف الاستقبال أن يطلب لنا القاهرة « سنكون بالحجرة » جاءتنا المكالمة وكانت سوسن هى التى ردت علينا فاطمأنت سألتها عن اخوتها فقالت انهم بخير فأعطيت التليفون لكمال .

كمال عاطفى . أرى الدموع فى عينيه وهو يتحدث مع سوسن بالتليفون . ثم يسأل عن سعد ويكلمه ثم أكلمه ونضع السماعة .

اشعلت سيجارة وقلت لكمال أن صديقه هذا أهوج لانه أقلقنا بلا داع . عندما رأيتك تدخل من باب المقهى فكرت أن أحد الاولاد أصيب فى حادث أو أن حريقا شب فى المستشفى . الحمد لله حصل خير !

ولكن كمال ظل قلقا وازداد قلقه عندما حمل له أحد أصدقائه جرائد الايام السابقة الصادرة فى مصر والمنشور فيها القرارات الجمهورية بالاعتقالات ونقل الصحفيين وأساتذة الجامعة قال :

ـ أنظرى انها قائمة بأسماء ١٥٣١ شخصا كلهم اعتقلوا .

ـ هل تعرف أحدا منهم ؟

ـ شخصيا لا • لكن العديد منهم شخصيات عامة ومعروفة • هذا اجراء خطير سيسبب للسادات مشاكل وربما لنا نحن أيضا •

ـ انت تبالغ يا كمال ! لقد زادتها المعارضة وهو يصفي حساباته معها أما نحن فليس لنا لا في الثور ولا في الطحين • لا علاقة لنا بالسياسة •

ـ ما حدث خطير •

ـ ليس خطيرا • انسى كل ذلك الان واستمتع بأجازتك •

وأخذت منه الجرائد ومزقتها ورميتها في سلة المهملات وقلت له انني أريد أن أقضي سهرة في «المولان روج» فضحك وقال : « سيذهب ثمن التذكرة في الهواء • ستقومين من نصف العرض وتقولين انه بذيء » قلت وأنا أضحك « هذه المرة سأتشجع وأتحمل العرض حتى نهايته في مقابل ما دفعناه ! » فضحك •

باريس كعبة الدنيا ، مدينة النور بحق ، كالعروس نهارا وليلا • واجهات المحلات ، السلع الثمينة ، المقاهي الانيقة ، الفنادق الفخمة الملاهي كلها تتلألأ وتملأ القلب بهجة . أتمنى لو كان كمال أصغر سنا ، لو كان عفيا قادرا على مواكبة خطوتي يحيط كتفي بذراعه ونسير في الشوارع معا كأننا في مقتبل العمر •

في طريق عودتنا الى القاهرة حملنا القطار السريع من باريس الى جنيف حيث أمضينا الليلة وفي الصباح توجهنا الى المطار وكان الطقس باردا والمطر غزيرا . قلت لكمال « تشبعت شعري من البلل والرطوبة سأصل القاهرة في صورة غير لائقة ! » تمنيت أن يتسع لي الوقت في المطار لتصفيف شعري في محل التجميل الذي رأيته في المطار عند وصولي ولكنه لم يتسع •

وصلنا المطار قبل اقلاع الطائرة بأقل من ساعة ، سلمنا حقائبنا واشترى كمال بعض الجرائد والمجلات ثم نادوا على ركاب الطائرة السويسرية المتجهة الى أثينا والقاهرة ، أقلعت الطائرة في موعدها وقال كمال وهو ينظر في ساعته « ان وصلت الطائرة الى أثينا واقلعت منها في الوقت المحدد نبلغ القاهرة في الثالثة بعد الظهر » • تصورت كل الاولاد في انتظارنا رأيت نفسي وأنا وكمال نخرج من صالة المسافرين تدفع أمامنا حاملة الامتعة ثم نلمح الاولاد من وراء الزجاج الفاصل ونخرج اليهم ونعانقهم . سألني كمال : « لماذا تضحكين ؟ ». قلت : « سعيدة بلقاء الاولاد ! » •

بعد ساعتين ونصف حطت الطائرة في مطار أثينا وأعلنت المضيفة أن على جميع الركاب مغادرة الطائرة بما في ذلك الركاب

المتجهين الى القاهرة . فلما استعلمنا عن الامر قيل لنا ان هناك تأخيرا فى موعد الاقلاع . فكرت ونحن ننزل الى المطار انه بامكانى لو كان علينا أن ننتظر أكثر من ساعة أن أصفف شعرى حتى يبدو لائقا .

وجدت مطار أثينا مختلفا عن المطارات السويسرية ، بدا لى أقل رونقا وجمالا . فقلت ملحوظتى لكمال فعلق مبتسما « كلما اتجهت شرقا وجنوبا شحب الضوء ! » قلت وأنا أهز رأسى موافقة «صحيح!» بحثت عن محل لتصفيف الشعر فلم أجد . أسفت لذلك ودخلت الى دورة المياه لاصلاح هيئتى بالقدر الممكن .

طال انتظارنا . قيل لنا ان مطار القاهرة مغلق ولكنهم لم يقولوا لنا السبب . حاولنا الاتصال تليفونيا ولم نفلح . ثم وصلت الى أثينا طائرتان احداهما قادمة من العراق والاخرى من ليبيا فامتلأ المطار بركاب مصريين ، اوضح لى كمال .

ـ انهم من العمال والفلاحين المصريين الذين يعملون فى الدول العربية ولان الطيران المباشر بين مصر وهذه الدول متوقف بسبب ما بينها من خلافات سياسية فانهم يركبون الى أثينا ومنها الى القاهرة

ـ غريب !

ـ فعلا غريب أن يسافروا من ليبيا الى مصر عبر اليونان فيطيروا شمالا ثم جنوبا مرة أخرى .

ـ لم أقصد ذلك ، أقصد شكلهم غريب .

ـ قلت لك أنهم أناس فقراء سافروا بحثا عن لقمة الخبز .

كانوا الآن يملئون المطار ، رجال بالجلابيب البلدية أو البدل القديمة ونساء ريفيات او من قاع المدن فى ذيل كل واحدة طفلان أو ثلاثة منهم من يبكى ومنهم من يضحك ومنهم من يركض بصخب ومنهم من أخرجت أمه ثديها وراحت ترضعه هكذا علنا وسط المطار ، غريب !

نبهنى كمال اننى ادخن اكثر مما يجب وقال « لا تقلقى ربما كانت عاصفة رملية أدت الى اغلاق المطار فى القاهرة » .

قمت الى دورة المياه وكنت أغسل يدى بعد قضاء حاجتى عندما دخلت امرأة تلبس ثوبا نيليا أزرق ويتدلى من أذنها قرط ذهبى على شكل مخرطة من ذلك النوع الشائع فى أرياف مصر وتربط رأسها بمنديل وكان معها طفل صغير . تطلعت المرأة فى وجهى وسألت :

ـ حضرتك ، من مصر ؟

فأومأت لها برأسى . قالت :

ـ يعني بتتكلمي عربي ؟
ـ نعم ·
مدت لى المرأة يدها بحماس لمصافحتي ·
ـ أهلا وسهلا ·· وحضرتك مسافرة من مصر أو راجعة لها ؟ ·
ـ راجعة ·
ـ والافندى بيشتغل في الخارج ؟
قلت بتحفظ :
ـ لا ·
قالت وكأنها لم تلاحظ انى أريد أن أذهب :
ـ أبو عيالى يشتغل في العراق وأنا وهو والعيال راجعين مصر أجازة · وصلنا من ساعة وبيقولوا الطيارات واقفة والمطار مقفول لان السادات انضرب بالنار !
ـ السادات ؟!
ـ انضرب بالنار ـ قالت المرأة وهي تنحنى على طفلها وتنزع عنه ملابسه المتسخة ـ الرجالة سمعوا فى الراديوهات انه وهو قاعد فى وسط الحكومة والبهوات والعسكر والحراس لابس المنصب والمذهب طلع عليه عسكرى قال له « جالك الموت ، خد ! » وضربه بالرصاص السادات مال وانكفي ، مات ماماتش ؟ لسه الخبر ما وصلش !
راعنى كلام المرأة كما راعنى ذلك الهدوء الذى كانت تتحدث به وهى تمسح لطفلها مؤخرته وتغسلها وتلبسه ملابس نظيفة . تركتها وهرولت الى كمال لابلغه بما سمعت فامتقع وجهه وسأل :
ـ انقلاب ؟
ـ لا أدرى
ـ لم تخبرك بأى شيء غير ذلك ؟
ـ لا ·
بحثنا عن تليفون بالمطار لعلنا نتمكن من مشاهدة نشرة اخبارية ولما وجدناه لم نجد أى برنامج اخبارى · ساعتها اقترح كمال أن نسأل أحد الشباب المصريين الذين يحملون معهم أجهزة راديو وفعلنا · أكد الشاب ما سمعته وقال ان السادات أطلق عليه النار فعلا أثناء مشاهدته العرض العسكرى المقام بمناسبة السادس من أكتوبر . وقال ان الاذاعات الاجنبية والعربية أذاعت الخبر كما أذاعت انه منذ نقل السادات الى المستشفى فى الواحدة ظهرا لم يعلن جديد ويتردد كلام انه أصيب فى يده وكلام اخر انه قتل ·
فى السادسة الا خمس دقائق عدنا للجلوس بجوار الشباب

ولاحظت ان كل المصريين قد تحلقوا في مجموعات حول من يحملون اجهزة راديو . قال رجل نحيل له وجه متغضن وشارب فضي كث:
ـ لو لم يمت السادات ستكون مصيبة لانه سيبطش بمعارضيه
ـ يبطش أكثر من ذلك ؟
قالها شاب باستنكار واضح . فأجابه الرجل النحيل :
ـ نعم سيبطش اكثر .. سيصبح في المسألة أحكام بالاعدام والمؤبد . ستتحول الى ثأر شخصي .. « حاولوا قتلي اذن سأجعلهم يدفعون الثمن غاليا ! » .
ـ لا أظن .
قالها أحد الرجال الجالسين متدخلا لاول مرة في الحديث .. وعاد يكرر « لا أظن » ولم أفهم ماذا كان يقصد بالضبط وتمتم شخص رابع :
ـ ربنا يستر !
دقت الساعة معلنة السادسة ولثوان خيم على المكان صمت مطبق وأصخنا السمع ثم أعلن المذيع « تأكد الان أن الرئيس المصري محمد أنور السادات قد توفي اثر حادث الاغتيال الذي تعرض له ظهر اليوم وقد صدر في مصر البيان التالي .. »
لم أكن قد أفقت من الصدمة عندما سمعت زغرودة مجلجلة . كانت امرأة متوسطة العمر تلبس نظارة طبية وتحيط رأسها بضفيرتين سميكتين هي التي تزغرد وتردد بانفعال انه راح وانتهى. ورغم زغاريدها فقد كانت الدموع تسيل من عينيها فرجحت أنها مجنونة ثم سمعت امرأة تلبس جلبابا ريفيا أسود تنادي عليها من موقعها وسط مجموعة متحلقة حول مذياع اخر :
ـ ياست يالي بتزغردي الشماتة في الموت حرام . مات « الله يرحمه » افترى في العباد ... له رب يحاسبه ويتولاه .
ولكن المرأة المجنونة كانت تكرر انه راح واخذ معه الايام السوداء وكانت تبكي. كان الجميع يتحدثون الان مع بعضهم البعض ومع انفسهم والصق الشباب الذين يحملون راديو اذانهم بالاجهزة التي معهم لعلهم يلتقطون تفاصيل أخرى ينقلونها لمن حولهم .
سحبني كمال من يدي وانتحى بي جانبا وهمس في أذني : « هذا ما كنت أخشاه ، ربنا يستر ! » فحدقت فيه مستفهمة . كنت مضطربة الى حد عدم الفهم وشعرت بتعب شديد يتملكني ورغبة ملحة في العودة الى بيتي والنوم في سريري .
طلبت من كمال سيجارة وكان لا يدخن الا نادراً . كان مقطب

الوجه يبدو عليه القلق الشديد اما انا فكنت افكر فى السادات المسكين وتذكرته حين أتى لزيارة ابنته فى المستشفى وشرب القهوة معنا . تذكرت النظرة الحانية فى عينيه وهو يودع ابنته وتذكرت زوجته فطفرت الدمعة من عينى وأخرجت منديلا من حقيبتى وتمخطت

قال كمال « قلت لك ان الامر لن يمر بسلام . كان تصرفه الاخير حماقة ، مقامرة مجنونة قد نضطر نحن لدفع ثمنها ! » لم أفهم شيئا مما يقوله ولكنه كان يضرب كفا بكف ويتمتم « ربنا يستر ! »

لم ينادوا علينا لركوب الطائرة قبل أربع ساعات . فى الاتوبيس الذى حملنا الى الطائرة كان الركاب يثرثرون بشكل عادى كأن شيئا لم يحدث أما فى الطائرة فقد لفهم الصمت . كانت رحلة قصيرة استغرقت أقل من ساعتين .

فى مطار القاهرة بدا كل شىء عاديا . قام رجال الشرطة باجراءات الدخول المعتادة ولكننا عندما خرجنا الى المدينة وجدناها ساكنة تماما ولم يكن فى الشوارع سوى أفراد من القوات المسلحة وحرس المنشآت . وقال كمال « يبدو أن هناك حظر تجول » وكان ذلك صحيحا لانهم ، أوقفونا فى الطريق ولما رأوا جوازى السفر عليهما أختام الوصول سمحوا لنا بالمرور .

وأخيرا وصلنا الى البيت وما أن أدار كمال المفتاح فى الباب حتى سمعت سعدا يهتف : « وصلوا ! » كانوا جميعا بانتظارنا : زينب وسوسن وسعد ومجدى والصغيران . التفوا حولنا نتبادل القبلات وقالت سوسن وهى تضحك : « الآن آتى لكم بالشربات » وضحكت ولم افهم ما تقصده الا عندما أوضحت زينب أن سوسن مغتبطة لموت السادات . فكرت فى توبيخها ولكنى عدلت « لا داعى لخلق توتر جديد بيننا » للاولاد وأنا أضحك : « لولا تأخيرنا فى مطار أثينا لكان كل شىء رائع .. كانت رحلة العمر .. تعالوا أريكم الهدايا التى أحضرتها لكم ! » .

الحمد لله لم يحدث شيء . بعد حادث اغتيال السادات كان كمال متوجسا يتابع الاخبار بشكل يومى ليعرف الى أين تتجه سياسات الحكومة . لم أكن ارى داعيا لقلقه فما دخلنا نحن بمصير رئيس يرحل واخر يجيىء ؟ لا علاقة لنا بالسياسة ولم يكن لنا علاقة بها فى أى وقت فلماذا القلق اذن ؟! ولكن كمال كان قلقا .

لم يحدث شيء . المستشفى يزدهر . كل صغيرة وكبيرة فيه كما يجب ويليق . نظامه فى دقة الساعة ، نظافته مضرب الامثال ، تطور أجهزته بلا منافس ، طاقم اطبائه هو الاكفأ فى البلد . « نموذج للمشروع الاقتصادى الناجح » هذا ما يقوله الناس ويعلق كمال : « خديجة وراء كل ذلك ! » فأجيبه بانه يبالغ .

المستشفى هو كل شيء . استغرب انه كانت لى حياة سابقة على وجوده وأفزع لفكرة أن أكون ولا يكون كأننى لبلابة تنمو وتتفرع على جداره الهائل ، أعطيه كل شيء . وهو يعطى حياتى الحياة فما الذى كان يصيبنى لو لم يكن هناك ؟! زينب منشغلة بزوجها والصغيرين وسوسن غائبة ولا تحمل فى حضورها سوى النكد والغم وسعد ركب رأسه وأصر على العمل فى الاسكندرية بعد تخرجه . قلت لأبيه : « اقنعه ، أضغط عليه ، قل له ان ذهب تكون غاضبا عليه ولكن كمال كعادته مع الاولاد يتركهم يفعلون ما يشاءون حتى لو كان ذلك فى غير صالحهم . أخذ سعد عروسه وذهبا الى الاسكندرية للعمل والاقامة وكمال بدأ ينسحب تدريجيا ليس فقط من العمل فى المستشفى بل ومن الحياة العامة أيضا فهو لا يفضل قبول الدعوات على العشاء وحفلات الاستقبال ولا يذهب الى المستشفى الا مرتين فى الاسبوع ، مرة لاجراء جراحات وأخرى لعيادة مرضاه . وأعرف أنه يشعر بالملل لجلوسه منفردا فى البيت طوال اليوم فأنا أمضى النهار فى المستشفى من الثامنة صباحا حتى الثالثة بعد الظهر وأشجعه على الخروج كل صباح ليجلس فى حديقة جروبى أو مقهى فندق شبرد وأعرض عليه أن أترك له السيارة والسائق فيقول انه يفضل أن يمشى ما دامت المسافات قصيرة لان ذلك يفيده ويساعده على قطع الوقت .

تقدم العمر بكمال فلم يعد يأكل ولا ينام كما كان يفعل فى

الماضى ، لقمتان ويقول شبعت . ساعات قليلة ينامها ثم يصحو مع الفجر فى الغالب وعندما استيقظ أجده شرب الشاى وقرأ الصحف كلها . كمال يخطو فى شيخوخته وحيدا والاولاد يخذلون . زينب أفضلهم لانها الاقرب والاكثر سؤالا عن أبيها وعنى . أما سعد فقد ترك أباه ليعيش فى الاسكندرية لمجرد عناد أحمق وسخيف . قال أبوه « اتركيه أنها مرحلة وتمر » ولكنى لا أصدقه لان هذا هو بالضبط ما قاله عن سوسن ولكنها لم تمر وبقيت البنت على حالها وكان من الاجدى الامساك بزمامها بقوة وحزم ما دامت طبيعتها جامحة فى الخطأ . الان فات الوقت وأفلتت البنت وكان الذى كان. عندما أعلنت انها سوف تستقل بحياتها وتقيم بمفردها كان الكيل قد فاض فقلت لها « افعلى ما بدالك أنت حرة ولكن اعلمى اننى لست راضية عما تفعلين . اسقطتك من حسابى ولم أعد اهتم ! » وعندما حكيت لكمال قال لى ان كلامى شديدالقسوة وأن البنت لابد وانها تألمت ألما شديد فقلت له أنها طائشة ومجنونة ولا يؤثر فيها شىء « هل تتصور انها أنصتت لما أقول ؟! انها لا تسمع الا مافى رأسها!» هذه البنت مشكلة بلا حل فكيف أجد لها حلا ؟ كادت تبلغ الثلاثين ولم تتزوج .. لماذا ؟ لا أفهم كلما اخترت لها عريسا سخرت ليس فقط منه بل ومن الفكرة ذاتها فهل تدخل الدير وتصبح راهبة ؟! أليست كباقى البنات تريد رجلا تحبه وتسكن اليه وتملأ عليه بيته بالاطفال ؟ ولكنها لا تفكر بهذا الشكل .. فكيف تفكر وما الذى تريده ؟ أبوها لا يوافق على ما تفعله ولكنه يجد لها الاعذار والمبررات وينهى أية مناقشة بيننا بشأنها بنفس العبارات : « دعيها ، هذه حياتها ومن حقها أن تفعل بها ما تريد ! » كمال هو السبب ، هو الذى حال دون أن ألجم هذه البنت واشد اللجام بما يناسب طيشها وطموحها الآن تأخر الوقت فهل فشلت فى تربية أولادى أم ان الاولاد هكذا يكبرون يركبهم عنادهم ويجنحون بعيدا عن أمهم التى أنبتتهم وعاشت سنوات عمرها ترعى وتكبر وعيناها وروحها متعلقة بفروعهم النامية ؟ قد أكون فشلت فى تربيتهم ..

فى المستشفى لم أفشل . يطلقون على « الملكة » يقولون « جاءت الملكة » «ذهبت الملكة» «قالت الملكة» حين سمعت بذلك للمرة الاولى استغربت وضحكت وبدت لى المسألة طريفة ولكنى الان اعتدت الاسم وهو يملؤنى اعتزازا لانى أعرف أن وراءه تقدير الاطباء والعاملين بالمستشفى لما أقوم به من جهد يجعل المكان شبيها بمملكة فاضلة يحكمها النظام والدقة والكفاءة تماما كما يجب ويليق .

الجزء الثانى
سوسن

-١-

انه عيد ميلادها الخمسين وكلى رغبة فى اسعادها . سأتحمم وأعتنى بتصفيف شعرى وألبس ثوب المناسبات وأشترى حذاء جديدا فتعرف أننى أهتم ويسعدها ذلك .

رافقتنى صديقتى سميرة الى السوق وتأملنا معا الواجهات الزجاجية لمحلات الاحذية . أشارت سميرة الى حذاء أسود لامع مقدمته مصنوعة من سيور جلدية دقيقة متداخلة :

ـ ما رأيك ؟

ـ جميل لولا كعبه .

كان للحذاء كعب مدبب رفيع يرتفع عن الارض مالا يقل عن سبعة سنتيمترات .

ـ لن ترتديه كل يوم ، انه حذاء للمناسبات !

ـ سأتعثر فى المشى به !

ـ بالعكس ، سوف يحولك الى امرأة محترمة ، تمشى ببطء أنثوى وتحوذ على رضا « البهوات » وتجلس بينهم بكل ثقة كأنها واحدة منهم ! ورغم أنها كانت تضحك فقد جذبتنى باتجاه باب المحل فدخلنا وطلبنا الحذاء . قسته فوجدته ضاغطا على قدمى ولكن البائع أكد أن المقاس مناسب : « أيام قليلة ويلين ويصبح مريحا » أبقيته فى قدمى ودفعت ثمنه ثم بحثنا عن هديتين مناسبتين لامى وخديجة ابنة زينب لان الاحتفال كان بمناسبة عيد ميلاد الاثنتين . بعدها تركتنى سميرة وتوجهت أنا الى منزل أهلى .

ألقيت نظرة مطمئنة على حذائى الجديد ثم ضغطت على الجرس . فتح الباب خادم لا اعرفه قال : « تفضلى البهوات فى الصالون » دخلت فوجدت أن زينب وخديجة جالستان وحدهما فى كامل زينتهما . تبادلنا السلام والقبلات وقدمت الهديتين .

كانت أمى تلبس ثوبا حريريا فى لون خشب الورد يكشف عن نحرها وذراعيها ويلف جسدها ويكسمه وتتزين بالماس : عقد على جيدها وقرط فى أذنيها وخاتم فى بنصرها الايمن ثم جاء أبى وكان كعهده فى الشهور الاخيرة يتكىء على عصاه ولاحظت أنه ازداد شحوبا ونحولا . دخل رجلان وامرأتان لا اعرفهما ثم لحق بهم آخرون وامتلأت المقاعد بالضيوف . نساء فى ملابس السهرة تفوح منهن روائح

المطور ورجال في حلل داكنة وقمصان بيضاء وربطات عنق نفسها وزين • النساء يرتدين أحذية سوداء لامعة لها كعوب رفيعة كالحذاء الذى بقدمي لكن الحذاء الذى بقدمي كان يؤلمني ألما حقيقيا فهل كانت أحذيتهن أيضا تؤلم ؟! شعرت بالارهاق والوحشـــة بحثت عن أمي وزينب فوجدتهما في حجرة المائدة فسألتهما ان كانتا تريدان مساعدة فقالتا انهما لا تريدان ، تركتهما • دخلت الحمام وخلعت الحذاء • كان الاحتكاك المستمر بجلدى قد ألهب عرقوب القدم ومفصل الاصبع الكبير الذى بدت عليه حزوز حمراء كأنه جرح بسكين • دفعت بقطعة صغيرة من القطن داخل كل فردة لتحمي جلدى الملتهب وأدخلت قدمي ، بات الشيء مستحيلا • خلعت الحذاء وبحثت عن شيء أضعه في قدمي فوجدت « شبشب » مصنوعا من المطاط ارتديته وعدت به الى الصالون لاحظت زينب الامر في الحال فهتفت في استنكار :

ــ أين حذاؤك ؟

ــ لقد اشتريته اليوم وهو ضيق وجلده قاس •

ــ ولكن هذا شبشب الشغالة !

لم نواصل لان أمي جاءت تدعو الضيوف الى مائدة العشـــاء وجدت نفسي غير راغبة في الطعام أتثاءب بقوة وبي رغبة في النوم• تركت الصالون ودخلت الحجرة التي كانت لي ولزينب وألقيت بنفسي على أحد السريرين ورحت في النوم •

عندما غادرت بيت أهلي لم تكن الساعة قد تجاوزت الســادسة والنصف صباحا • سرت على أطراف أصابعي وأغلقت الباب خلفي في هدوء حتى لا أوقظ أحدا • كان الميدان خاليا الا من بائع الحليب يدق جرس دراجته وامرأة تهرول وبدا التمثال في تلك الســـاعة المبكرة من الصباح أليفا تماما كما كان أيام طفولتنا •

أنا وزينب ننزل كل صباح للذهاب الى المدرســة • نقف أمام بوابة البيت نثرثر ونقضم « الساندويتشات » وننتظر ثم نســـمع صوت موتور الاتوبيس فنلتفت باتجاه شارع قصر النيل ونجده قادما نحمل حقائبنا المدرسية الثقيلة ونســـتعد • عندما يتوقف نصعد ونقول بصوت واحد تقريبا « صباح الخير » ثم نجلس متجاورتين •

في الصغر كنا ننام في نفس السرير ولا نلعب الا معا وعندما كبرنا بعض الشيء صار لنا سريران متجاوران ومكتبان صغيران متلاصقان • نستيقظ معا في الصباح ومعا ندخل الحمام ، احدانا تجلس لقضاء حاجتها والاخرى تغسل وجهها وتفرش أسنانها • نرتدى ملابسنا في نفس الوقت وفي نفس الــوقت ننزل • درســنا على أيدى نفس

المدرســـات وقرأنا ذات المقررات فلمـــاذا أصبحت زينب هي زينب وأصبحت أنا سوسن ·· وفي أى لحظـة من حياتنا تفـــرع مجـــرى العمرين ؟

ضبطت نفسى أتأملها بعين المشـــاهد الغريب وهى أختى التى كنت أسر اليها بكل أشيائى الصغيرة التى لا أجرؤ على قولها لسواها والتى كنت حين أرى حلما مفزعا أوقظهـا لاسرح لها بخوفى ، تهدئنى وتحتضنى فأنام بجوارها مطمئنة · ضبطت نفسى أنظر اليها نظرة الغريب الى الغريب · كيف بدأ الامر ، كيف تراكم ؟ وهل الاختلاف يأتى بالوحشة ؟ وما الذى يباعد بين مجرى ومجرى ؟

« اسمى سوسن كمال الدين صفوت وعنوانى ١ ميدان مصطفى كامل الدور الثامن شقة ٨٢ » لو ضعت يا ماما وقلت للناس اســـمى والعنوان ألا يعيدونى اليك ؟ » كنت فى الرابعة من عمرى وربمـا حتى فى الثالثة · كان اسم الميدان تماما كالميدان نفسه والتمثـــال الذى يتوسطه والعمارة التى تطل عليه ونسكنها لا تعنى لى ســوى الالفة والامان : عنوان البيت ·

وفى يوم كنا ننتظر سيارة المدرسة ، ما الذى جعلنا نعبر لنلعب حول التمثال ؟ ربما كنا نلعب لعبة القط والفأر : أختفى خلف التمثال وتحاول زينب الامساك بى · ساعتها رأيت الكتابة · حاولت قراءتها ولم أفلح فطلبت منها أن تفعل · كانت فى السنة الرابعة الابتـدائية وتحسن القراءة ، قرأت : « مصطفى كامل باشـــــا ١٨٧٤ ـ ١٩٠٨ » وعلى الجانب الايمن : «لا معنى للحياة مع اليأس ولامعنى لليأس مع الحياة » ومن الجهة اليسرى « ان من يتسامح فى حقـوق بلاده ولو مرة يبقى أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجـدان » وعلى ظهـــر التمثال : « اكتتبت الامة بجميع طبقاتها فى صنع هذا التمثال سنة ١٩١٠ وفى سنة ١٩٣٨ قررت الحكومة اقامته فى هذا الميدان تمجيدا للذكرى قرأت زينب كل ذلك ولم أفهم ســوى انه كلام مبهم عن مصر التى نغنى لها كل صباح ساعة رفع العلم فى المدرسة · سألت زينب فقالت أنها لم تفهم شيئا ثم سمعنا صوت موتور ســـيارة المدرسة فقالت باحتجاج : « أضعنا الوقت فى قراءة كـلام لا نفهمــه ، جاء الاتوبيس ولم نلعب ! » ·

ثم نسيت الامر أو بدا لى اننى نسيته حتى رأيت ذلك الفيلم فى التليفزيون · كنت أحب مشاهدة الافلام العربية بكل أنواعها الافلام المضحكة التى يتنكر فيها البطل فى ثوب امرأة والافلام المحـزنة التى تبكى فيها البطلة المظلومة بصوت متهدج وهى تكرر أن الله هو المنتقم

وأفلام المغامرات التى يتعارك فيها الطيب والشرير ويحطمان كراسى المقهى على رءوس الرواد والافلام العاطفية التى يغنى فيهـا الحبيبان عن الحب والعصافير · فى ذلك اليوم طلبت من زينب أن تقـرأ فى الجريدة اسم الفيلم الذى سيذاع عصرا فى التليفـزيون فقالت « مصطفى كامل » وتأففت : « لن نضحك ولن نسمع أغانى ولن نفهم شيئا ! » ولكننا ما أن عدنا من المدرسة بعد ظهر الخميس وبدلنـا ملابسنا وأكلنا حتى بدأنا ننتظر موعد عرض الفيلم ·

شاهدنا الشاب الوسيم الذى كان اسمه مصطفى كامل وتابعنـا حكايته ورنة صوته وايقاع كلماته وهو يخطب فى الناس ويدق بيـده اليمنى على المائدة التى أمامه ورأينا الفتاة التى نسجت له علم مصر وأهدته له وأجساد الفلاحين المتأرجحة على المشانق · وفى اخر الفيلم رقد البطل على فراش الموت ثم مات · وبـكت زينب وقالت بصـوت مخنوق انه فيلم حزين ·

ثم أصبحت أقلد مصطفى كامل · ألبس طربوشا قديما كان لجدى صفوت واحـدى سترات أبى وأضع كوب ماء على طاولة أقف وراءها أكرر كلماته بصوت جهورى وأدق بقبضتى على الطاولة فتضحك أمى وزينب ويصـفق سعد وأحيانا يأتينا ضيوف فتنادينى أمى وتقول « قلدى مصطفى كامل يا سوسن » فأقلده ويضحكون ·

وربما فى نفس تلك الفترة أو بعدها بسنة أعلن جمـال عبد الناصر ما سمي بالقرارات الاشتراكية · كنا فى الاسكندرية نقضى أجازتنا الصيفية مع أمى · وعندما عدنا الى القاهرة كان الحديث بين جدى صفوت وجدى محمود يدور دائما حول « عبد النـاصر الذى خرب البلد » ولم أكن أفهم معنى هذه القرارات ولا لماذا يقولون أن فيها خراب البلد · كذلك لم أكن أعرف من الصادق فى كلامه همـا أم مدرسة الموسيقى التى كانت تجمعنا فى الحصة الاسبوعية وتجلس الى البيانو وتعزف وتغنى :

« وطنى حبيبى وطنى الاكبر
يوم عن يوم أمجاده بتكبر
وانتصاراته مليه حياته
وطنى بيكبر وبيتحرر »

ولم تكن مدرسة الموسيقى وحدها بل المدرسون الاخرون أيضـا فى حصص العربى والتاريخ والجغـرافيا والتربية الوطنيـة فى السنوات التالية يدرسوننا أن عبد الناصر بطـل عظيـم لانه طـرد الانجليز من مصر وأمم القنال وحقق الاشتراكية التى تعنى الكـفاية

والعدل ولانه سوف يحرر القدس من المحتلين تماما كما فعل صلاح الدين من قبله ·

هذا ما كنا ندرسه فى المدرسة أما فى البيت فلم يكن أحد يحب عبد الناصر · كان ذلك واضحا على الرغم من انه لا أمى ولا أبى كانا منشغلان بالسياسة والحديث فى أمرها · ولم يكن الامر يشغلنى ولم يبد لى أنه يشغلنى أكثر من زينب التى كنت انتظر معها ليلة الاحتفال بثورة ٢٣ يوليو لنستمع الى الاغانى الجديدة التى يقدمها عبد الحليم حافظ وشادية أمام جمال عبد الناصر فى نادى الضباط ، ونشاهد الحفل معا فى التليفزيون ونتابع العرض العسكرى صباح اليوم التالى : تشكيلات الدبابات والمدرعات والصواريخ وطوابير الجنود وأسراب الطائرات المحلقة يعلق عليها مذيع بليغ تتخلل تعليقاته موسيقى المارشات العسكرية ·

كان جدى صفوت يكرر ان ربنا من غضبه على مصر ولى عليها عبد الناصر وكنت أنا وزينب نحب أغانى عبد الحليم حافظ ونتبارى فى آداء أغنية أم كلثوم :

محلاك يا مصرى وأنت ع الدفة
والنصرة عاملة فى القنال زفة
ياولاد بلدنا تعالوا ع الضفة
شاوروا لهم
غنوالهم
وقولوالهم
ريسنا قال ·· مفيش محال
راح الدخيل وابن البلد كفى

وعندما وقعت الواقعة وانهزم الجيش المصرى فى سيناء بكت زينب طويلا لان سوء حظها جعل كل هذه المصائب تحدث فى الايام المحددة لاعلان خطبتها ، أما أنا فركضت الى الشارع كان فيه النجاة من الموت ، ركضت بلا تفكير بدافع كالغريزة وأعادتنى أمى عنوة كأنى نعجة شاردة وقيدتنى بالحبال · ليلتها قلت لزينب وأنا أحدق فى الجدار :

ـ زينب ···
ـ نعم
ـ تعرفين ؟
ـ ماذا ؟
ـ أمى ··

ـ مالها ؟

ـ انها تريد قتلى !

كانت عيناى مثبتتين على الجدار •

ـ هل جننت ؟

ـ لا ، انها الحقيقة !

ـ سوسن لا تقولى ذلك •

لم تفهم زينب • ظننتها الاذكى ، فى المدرسة كانت الاكثر تفوقا تبذل مجهودا أقل وتحقق نتيجة أفضل ، لماذا لم تفهم ؟! •

كررت :

ـ أمى تريد قتلى يا زينب !

جلست الى جوارى وأمسكت بيدى بين يديها وقالت : « انه الشيطان يا سوسن ، انه الشيطان يوسوس لا تستسلمى له » وبكت وقالت أنها خائفة واحتضنتنى وقبلتنى ثم قامت لتصنع لى كوبا من الليمون •

لم تفهمنى زينب ولكنى لم أشعر بالغربة ولا رأيت علامات الانشقاق والتحول فهل ولد الانشقاق لحظتها أم أنه جاء بعد ذلك وأنا أحفر بأظافرى بحثا عن الاجابات التى تروى ؟ •

سبتمبر ١٩٦٧ • اليوم الاول من العام الدراسى فى نهاية الحصة الثالثة دق الجرس ونزلنا للفسحة لم أخرج الى الفناء مع باقى الطالبات بل واصلت النزول على السلم الحلزونى حتى وصلت الطابق الارضى حيث المكتبة •

الباب مفتوح • قاعة فسيحة مستطيلة تغطى حوائطها أرفف الكتب • فى الطرف المقابل للباب جلست أمينة المكتبة • اقتربت منها :

ـ صباح الخير هل يمكن أن أستعير كتابا ؟

ـ أى كتاب ؟

تلعثمت :

ـ لا أدرى بالضبط ، ولكنى اريد أن أقرأ فى التاريخ •

قادتنى الى أحد الاركان وقالت وهى تشير الى مجموعة من الارفف « هنا » ثم تركتنى وعادت الى مقعدها •

استعرت كتابا ضخما عليه صورة لرجل طويل يميز وجهه شارب أسود كث ويرتدى طربوشا غير مألوف الشكل وسترة طويلة بصفين من الازرار النحاسية المتقابلة • وكان عنوان الكتاب : « الثورة العرابية » •

وبدأت أقرأ • اقرأ بنهم فى الطريق الى المدرسة وفى الطريق منها ، فى المساء بدلا من المذاكرة وفى الليل والكل نيام ، اقرأ ، أتابع تفاصيل الثورة ، فعل عرابى ورجاله ، وقفته فى مواجهة الخديو بميدان عابدين : « أنتم عبيد احساننا » « لسنا عبيدا لاحد ، لقد خلقنا الله أحررا » تتجمع الاشواق كالفلاحين فى جيش الثورة ، تقوم وتنكسر ويأتى زمن الاحتلال • تحمل السفينة قادة الثورة الى المنفى وهم يولون وجوههم شطر الشاطىء الذى يبتعد : « يا كنانة الله صبرا على الاذى حتى يأتى الله لك بالنصر » أبكى ، تختلط الحروف أمام عينى فأمسح دموعى ولكننى فى النوم أبكى • توقظنى زينب وتأتى لى بكوب ماء أشرب • تقول انه كابوس ، تنصحنى : « اقرأى الفاتحة قبل النوم فتتبدد الكوابيس » •

١٨٨٢ لا تتبدد • البوارج فى البحر تقصف الاسكندرية • الحصون لنا والبوارج علينا• تجفل روحى من قصف الغزاة لمدينة هى لى ملهى الطفولة ، اسكندرية الامواج واللعب تتوارى خلف الحصون تصمد ثم لا تصمد • وعرابى فى ظلام سجنه يسمع الصوت قبل أن يرى صاحبه •

ـ يا عرابى
ـ ماذا تريد ؟
ـ أتدرى من أنا ؟
ـ لا ! اعلمنى باسمك وماذا تريده منى فى هذا الوقت ؟
ـ أنا ابراهيم أغا يا ابن الكلب يا خنزير

ثم يبصق على عرابى ويهينه •

فهل كانت هزيمة التل الكبير هى التى توجع أم هزيمة الجيش فى سيناء ؟ شىء يجرح ويهين يلازمنى فى النهار فأواجهه بعناد شرس متخشب وفى الليل يفيض دمعا يغمرنى فأصير ككسرة خبز فى الماء فتاتا هشا •

ليلة من ذات الليالى انتبهت زينب فسألتنى :

ـ لماذا تبكين ؟
ـ لا شيء
ـ ولكن الدموع تبلل وجهك وعيناك حمراوان .
ـ لا شيء .
جلست بجوارى وألحت فى السؤال فقلت . أعلنت دهشتها .
ـ تبكين هكذا من كلام فى الكتب ؟!
ـ ... ...
ـ الانسان لا يبكى الا لاسباب حقيقية .
ـ ... ...
ـ سوسن انك تكذبين ، ماذا حدث ، هل وقعت فى الحب ؟

- ٢ -

ذهبت اليوم لزيارتها وكما فى كل مرة ننفرد باللقاء أعود وقد ركبنى الغم والسؤال المربك الملح : « أليس هناك من طريقة لدرء تلك الوحشة التى تنتصب كالسلك الشائك بيننا ؟ » نلتقى فيجثم الصمت على صدرينا لا يقطعه الا جمل منبتة .

لا شيء يجرى ، لا نهر ، لا نبع ، لا دائرة تواصل ... لا شيء الا تلك النظرة الصارمة التى تباغتنى أحيانا بها ... لحظة خاطفة يعقبها الانصراف والتجاهل .

لم تكن الأمور هكذا دائما . فى طفولتى المبكرة كانت هى كل شيء ليس فقط لأن أبى كان غائبا فى عمله تكاد لا نراه الا يوم الجمعة ولكن لانها أعطت أيامنا شيئا من الفرح الصاخب لاطفال فى مدينة للملاهى : نضحك فى طرب منتش ومستشار . وحتى عندما كنا نخطىء فتصرخ فينا كالغولة ونركض مذعورين كالأرانب نختفى فى الاركان والزوايا كانت تصفو بسرعة مدهشة وتغمرنا فى صخب جامح ترفعنا كأنها موجة فى بحر الاسكندرية الكبير .

فما الذى حدث بعد ذلك ؟ حادث مؤسف أو أمر طبيعى؟ طلقة افزعت الطائر فهاجر بعيدا عن مدى الصياد .. ولم يكن يوم قيدتنى بالحبال الى السرير اذ كنت منشغلة عنها وعن نفسى بالكارثة التى حلت . يوم آخر هو الذىافزعنى فركضت نافرة ومذعورة .

حدث الأمر بلا مقدمات . لم تتشاجر مع سعد ، لم يصدر عنه شيء يستدعى العقاب ، لم يجر نقاش يمهد لما فعلته . عاد سعد من مدرسته دخل حجرته ثم خرج منها . وكنت أجلس بجوارها نشاهد تمثيلية فى التليفزيون .

ـ ماما ، أين اشيائى ؟

أجابت دون أن ترفع عينيها عن التليفزيون :

ـ انا والشغالة قمنا اليوم بترتيب حجرتك ، الا تقول شكرا ؟!

ـ والرسوم ياماما ، الرسوم والتماثيل اين وضعتيها ؟

ـ تخلصت منها

ـ تخلصت منها ؟!

كنت انا التى سألت . سعد واقف امامنا ممتقع الوجه كأنه سوف يسقط مغشيا عليه

ـ لماذا يا أمي ... لماذا ؟
ـ لا قيمة لها ... لا معنى لها ... تشغلك عن دروسك وتجعل الحجرة كمقلب للقمامة ... أوراق وطين وجبس وخشب ... كراكيب تخلصنا منها !
ـ كيف ؟
ـ اعطيتها للزبال .
اغلقت التليفزيون ووقفت فى مواجهتها أصيح :
ـ ماما ماذا فعلت ؟
ـ لا أسمح لك بمخاطبتى بهذا الشكل ، كيف تجرؤين ، هذه وقاحة !
ادرت لها ظهرى ولحقت بسعد فى غرفته وطرقت الباب بعنف وكان سعد جالسا على سريره مطاطىء الرأس . حاولت التحدث معه ولكنه بقى صامتا ثم انتهيت الى الزجاج على الارض والى يده النازفة . كان قد حطم كوبا زجاجيا زخرفه بنفسه ليضع فيه أقلامه على المكتب ، ضغط عليه بيده حتى تحطم . أخذته ونزلت الى أقرب صيدلية لعمل الاسعاف اللازم . بعدها أصيب بحمى استمرت عدة أيام وأعلنت أمى أن سعد جرح يده وذهب الى صيدلى حمار لم يفلح فى تنظيف الجرح فأدى الى تلوث تسبب فى هذه الحمى . قالت أمى هذا الكلام وظلت تعيده حتى صدقته .
عندما كنت صغيرة كانوا يقولون اننى اشبهها « الخالق الناطق خديجة » ، « سوسن نسخة من أمها » الآن لم أعد أشبهها . هى خديجة الملكة التى تدير المستشفى بصرامة قائد عسكرى وتلبس ثياب الحرير الطبيعى التى تفصلها لها مدام لاورا الخياطة الايطالية وتتحلى بمشبك البلاتين المطعم بالماس أو بعقد اللؤلؤ الحر وانا سوسن ذات الحذاء المغبر يشغلها كتاب أو سؤال فتنسى شراء رغيف خبز للعشاء وتنتبه فى الصباح انه لم يعد لديها قطعة سكر تحلى بها كوب الشاى .
لم أعد أشبهها ولذلك استغربت كلام مجدى عندما قال: «تشبهين أمك بشكل مدهش ! » واجبته : « كنت اشبهها أما الآن فاختلف تمام الاختلاف » قال : « تشبهينها من الداخل ، قوتك ، عنادك ، كلها منها وليست من ابيك ! » وكان ذلك أعجب ما سمعت ولم أفهم كيف رأى مجدى ذلك .
فى طفولتى أعجبت بذكاء أمى ومهارتها وكان البيت كالساعة فى نظامه ونظافته . أن قامت بطهو الطعام اجادت وأن استقبلت

ضيوفنا فبالشكل اللائق وان تحدثت احسنت تكرر على مسامعنا « لا أحب النص نص . فى المدرسة كنت الأولى باستمرار . تلاميذ بالنسبة لى تعنى تلاميذ مجتهدين . القبول بالمسئولية يعنى القيام بها على أكمل وجه « واصبح سعد طبيبا نص نص » يملؤها ذلك مرارة تتغاضى عنها حينا وحينا تتذكرها فتنفجر فيه كأنه عاد لتوه حاملا شهادة تخرجه بتقدير مقبول .

فى المدرسة كنت افخر بها عندما تاتى لزيارتى فتبدو أجمل الأمهات وأكثرهن اناقة وذكاء . أرى الاعجاب فى عيون المدرسات وزميلاتى ايضا كن يحسدننى لانها تشرح لى الدروس وتساعدنى فى كتابة مواضيع الانشاء وفى رسم الخرائط .

فى سنوات المراهقة انقلب الحال فكنت اشعر أننى منكوبة بها وهى تضغط وتقتحم وتقمع وبدأ اللجام فى يديها قارصا بما لا يطاق تركتها تمسك بلجام وهمى . حفرت لنفسى سراديبى الارضية التى لا تراها ولا تعرف بوجودها . أدرت شئونى بما يحلو لى بعيدا عنها ، الكتاب الذى اقرؤه ، السؤال الذى يشغلنى ، الصديقة التى اسكن اليها ، الشاب الذى أحبه كلها فى السرداب أمور لا تعلم عنها شيئا . هكذا تحاشيت صدامات يومية تنهكها وتنهكنى وأحيانا رغم ذلك يقع الحادث المؤسف كأنه لا راد له :

قال سعد :

ـ ماما ، احب فادية واريد التقدم لخطبتها .

ـ ومن هى هذه الفادية ؟!

كانت تعرفها وتعرف انها صديقة سعد ..

ـ ماما لقد رأيتها أكثر من مرة ، انها زميلتى فى كلية الطب .

ـ وما عيب راندا ؟

تلعثم سعد واحمر وجهه . تدخلت فى الحديث :

ـ وماعيب فادية ؟

ـ لا تناسبنا . راندا أحلى وأكثر اناقة وابوها جراح كبير كأبيك.

ـ ولكنه يحب فادية ولا يمكنك ان تملى عليه شعوره .

ـ كفى عن هذه الوقاحة ولا تتدخلى فيما لا شأن لك به . اسمع ياسعد ان كنت تريد الزواج فانا مستعدة أن اذهب معك الى الدكتور سالم ونطلب راندا ، اما موضوع فادية فمن الأفضل ان تصرف نظر عنه وان كنت مصرا فاذهب وحدك .

بعدها باسابيع سألته :

ـ ماذا فعلت في موضوع فادية ؟
ـ لم افعل شيئا .
ـ هل تخليت عن الموضوع ؟
ـ . . . . . .
ـ لماذا لا تجيب . ؟
ـ ماذا اقول !
ـ قل لى ماذا حدث ؟
ـ قلت لها انك غير موافقة وانى مستعد للتقدم لخطبتها وحدى
ـ ماذا قالت ؟
ـ رفضت .

ابتسمت أمى ابتسامة عريضة وقالت :

ـ انت ولد ساذج وبرىء . هى وأهلها يريدونك طمعا فى مال ابيك ومركزه .

ـ ارجوك ياامى كفاك تجريحا !

وكانت هذه هى المرة الأولى التى أسمع فيها صوت سعد يعلو ويحتد . انسحب الى حجرته . يومها اشتبكنا ، علا صوتى وعلا صوتها ثم خاصمتنى شهرا لم تبادلنى فيه حرفا .

فى البداية كنت مزهوة بها لا ارى اذكى ولا أجمل منها ثم ركضت نافرة وخائفة من عنفها المستبد . الآن لم أعد أركض ربما لأننى لم أعد خائفة . اقول لنفسى هى أمى وأنا ابنتها وهذا قدر لا راد له وهى لا تملك الآن أن تملى على حياتى فلماذا لا أقبلها كما هى ؟ ولكنى لا أقبلها كما هى واظل اتساءل لماذا تختلف أمى الى هذا الحدعن أم سميرة مثلا . خالتى سيدة على عكس أمى لا يقلقها امتلاء جسمها لها وجه قمحى مستدير يؤكده فرق فى المنتصف تصفف على جانبيه شعرها الأجعد الذى بدأ يغزوه الشيب . تلبس أثوابا منزليةمتواضعة تفصلها بنفسها على ماكينتها « السنجر » ذات اليد . باب شقتها لا يغلق أبدا وزوارها يأتون فى كل وقت ، جيران واقارب ومعارف يأتون لطلب النصح أو المواساة أو كوب من الزيت أو جنيهين حتى قبض المرتب أول الشهر أو للثرثرة وشرب كوب من الشاى . ربت خالتى سيدة وأولادهاوأطلقتهم فى الدنيا احرارا يفعلون ما يروق لهم، لاتطالبهم بشىء بل وتقبل خياراتهم حتى وأن لم تكن تفضلها ويظل صدرها واسعا ويداها ممدودتين وفى العينين نظرة تعاطف ومحاولة للفهم فلماذا عندما جرؤت على اعلان أننى سوسن ولست خديجة اسقطت امى ذراعيها وادارت عينيها وانكرتنى ؟!

أتساءل عن مصدر الاختلاف بين المرأتين هل هو طبع أم تطبع مرده حياة عاشت خالتي سيدة التضحية وانكار الذات ولم تعلم أمي سوى التملك والاستبداد ؟ هل خالتي سيدة اقل ذكاء من امي وأضعف شخصية أم انها أرقى واطيب واحكم ؟ وهل العصا واللجام اللذان تتمسك بهما أمي من معدات الطبقة التي تنتمي اليها ؟ وان صح هذا فلماذا يختلف ابي عنها الى هذا الحد ؟! انه اكثر سلاسة منها يمكن التفاهم معه حتى عندما لا يتقبل ما اقوله أو افعله يعلن اختلافه ولكنه لا يشتعل كالنار وينفجر فتتطاير الشظايا في وجه محدثه. انه سهل المعشر ومشغول ويحبها « افعلي ما تريدينه ياخديجة » ، « الأمر لك » ، « ولما لا ... اليس هذا ما تفضلينه ؟ » تتكرر العبارات في بيتنا كلازمة لحياتنا اليومية . سلمها كل شيء عن طيب خاطر لانه منهمك في عمله الذي يستوعبه من الصباح الى المساء . يعمل طول الوقت وعندما يعود الى البيت يفرط في تدليلنا كالأب العائد من السفر . هو يغدق ويدلل وهي تمسك باللجام وتفرقع بالسوط وتوجه بالمهماز لانها تريد لنا السبق والفوز ، هذا ما تقوله وتعتقده .

تفزعني واحبها ، ليس فقط لانني نشأت على حبها ولكني احبها لاني احبها وأعي تلك اللحظات التي تفاجئني نفسي وهي تسعى اليها تطلب القرب والقبول وارتبك لاني لا اعود افهم ان كانت سوسن الواقفة بعيدا تحمل الف مأخذ على خديجة ، واقفة بعيدا حقا بكامل روحها أم ان شيئا ما ينسلت منها ويخطو متلصصا الى المرأة الواقفة هناك يفتح ذراعيه ليطوقها وهو يهمس : « انظري الي يا أمي فأنا احبك ! »

فهل تطوقني امي أم انني قطعت الرباط . أقيم وحدي ولا يملي خطوتي الا ما أقتنع به واعترف من ضرورة ... اقطع الرباط ... انقطع ولكنه يترك علامته كتلك العقدة الغائرة في منتصف البطن تميز جسد الانسان منذ ولادته والى الأبد .

اليوم رايته قال وهو يبتسم ويرفع يده بالتحية :
ـ كيف حالك يا سوسن ؟
قلت دون أن أبتسم :
ـ لا بأس .

وابتعدت فكيف يمكن للمرء أن يركض محموما فى اتجاه انسان ثم يعود يركض فى الاتجاه المعاكس ؟ وكيف يتحـلل الشىء البهى كوردة فيثير فى النفس التقزز والنفور ؟

عندما دخلت الى بيت أمين فى تلك الليلة ورأيته جالسا ضمن الجالسين اندهشت الى حد الارتباك وملت على أمين أهمس فى أذنه « لم أكن أعرف أن الدكتور عبد الموجود صديقك » ابتسم أمين بزهو طفولى « انه صديقى جدا . لقد عاد من السفر الاسبوع الماضى » . صافحته كما صافحت الاخرين وجلست باستحياء فى حضرة الاستاذ لم يكن يعرفنى ولكنى كنت أعرفه فقد درس لى عامين فى الجامعـة وكنت واحدة من مئات التلاميذ الذين كانوا يجلسـون فى المدرج مأخوذين بعلمه وبلاغته .

كان فى الاربعين أو ربما تجاوزها بسنوات قليلة قـوى البنية وحلو القسـمات له عينان دعجاوان وحاجبان مقرونان وشـارب أسود كث يلتقى بلحية تغطى ذقنه تماما وتكاد تخفى امتلاء شفتيه. كان آسرا فى شكله وحديثه وكتاباته ومواقفه وكنت أجلس فى المدرج أتطلع اليه وأتابع ما يقول فيبدو لى ساطعا وبعيدا كنجوم السماء أو السينما ولكنه الان كان يجلس على بعد شبرين عنى يتحدث ويضحك بعادية وألفة مذهلة .

ثم قام ليعد القهوة ووجدت نفسى أتبعه الى المطبخ . وقف يصنع القهوة ووقفت أنظر اليه . حدث شىء ، شىء ما حدث فما الذى حدث ؟ لا شىء . رجل يصنع القهوة وامرأة تنظر اليه فيحـدث ذلك الشىء الذى يسقط كل الايام السابقة مصفرة وغريبة ويابسة كأن لم تدب فيها حياة قط ويأتى بأيام تورق وتتفتح وتتوهج بهية وجـديدة وخضراء . هل هكذا حب النساء أم أننى التى أصابها الحب كصاعقة فصارت تركض فى اتجاه من تحب كأنمـا الركض اليه هو الوجـود

وعلة الوجود ، وهل كان حبا أو شبقا أم كان الاستاذ الذى أسرنى بمحاضراته وكتبه ومواقفه قد كسب الجولة مسبقا ؟

صرنا نلتقى مرتين فى الاسبوع ، هكذا رأى من المناسب وهكذا كان . مرة نتناول غداءنا معا ونمضى ساعتين من الثانية حتى الرابعة ومرة نلتقى مساء من السابعة حتى التاسعة . يتحدث وأسمع مأخوذة كطفلة أمام خشبة مسرح مفردة لعرض رجل واحـــد يروح ويجىء يصول ويجول ، يستعرض قدرة مبهرة على تحويل مفردات التجربة الى أفكار وأفكاره الى حياة . مدهش كحاو يدخل الارنبة فى سترته ويخرجها من كمه مناديل ملونة ، يقلب قبعته على المناديل الملونة ثم يرفعها فتجد الارنبة . وأنا طفلة بين يديه يبهرهـــا عـرض الرجل الواحد ويأسرها أن العرض مقام لاجلها فكيف لامرأة تجاوزت الخامسة والعشرين أن تنبهر هكذا كطفلة .. أية حمق واية بلاهة أم هوالحب يسلب الانسان عقله وكيف وانبهارى قائم على أحساس جارف بذكائه وعلمه وقدرته على التحليل السياسى والتاريخى وعلى استخلاص جوهر المسألة وقانونها من ركام التفاصيل وصياغتها بوضوح وفصاحة ؟! كان ذكيا وبليغا وكنت أحبه .

قالت لى سميرة أنها قلقة بسبب هذه العلاقة .

ــ لانه متزوج ؟

ــ لانه متزوج وأيضا لانه مقلق .

ــ ولكنه متزوج وغير متزوج . لا شىء يربطه بزوجته . انهمـا يسكنان معا من أجل ابنتيهما . وأنا يا سميرة لا آخذ ما ليس لى ولا أتعدى على حق أحد !

اندفعت كلماتى بلا قصد حادة وغاضبة . آلمنى كلامها واستفز طاقتى للدفاع عن النفس . ولكنها عنيدة ، كررت بهدوء كأنهـا لم تسمعنى :

ــ لا أطمئن له .. به خلل ما لا أدرى ما هـو ، خـلل ليس فى التفاصيل بل فى الجوهر ، سوسن أنا متأكدة !

قالتها بعناد البغال وحسم الانبياء وتركتها حانقة أقول لنفسى ان صديقتى غبية فمن كان الغبى فينا ؟!

قلت لعبد الموجود : « حدثنى عن زوجتك » قال : « ألم أفعـل من قبل ؟! » كان قد حكى لى عن ملابسات زواجه بها أثناء دراسته فى الخارج « كنت غريبا ووحيدا وكانت هى صغيرة ولطيفة وابنـــة أستاذى الذى فتح لى بيته كأننى واحد من الاسرة .. كانت قصـــة عاطفية عابرة ولكنها للاسف انتهت بالزواج وطفلتين فلم تعد قصة

عابرة رغم أن العاطفة استنفدت نفسها وانتهت » كان ذلك ما قاله لى فى مرة سابقة ، هكذا بشكل مقتضب ولكنى فى هذا اليوم كنت أريد أن أسمع منه باسهاب • قال :

ـ لماذا تريدين أن أحدثك عنها ؟

ـ أريد أن تحدثنى عنها ، عن علاقتك بها •

ـ ليس لدى ما أقوله ، انها امرأة طيبة محدودة الامكانيات وليس بيننا سوى البنتين وحكاية قديمة •

ـ فقط ؟

ـ فقط !

نظر الى ساعته وقال أن موعد ذهابه قد حان • كان دقيقا كساعة منظما كحاسب آلى يبدأ يومه فى الخامسة الا ثلثا صباحا بتمرينات رياضية لعشر دقائق ثم حمام بارد وفنجال قهوة بالحليب ويجلس الى مكتبه من الخامسة الى الثامنة والنصف بعدها يتناول افطاره وينزل الى الجامعة •

ولم ألتق بزوجة عبد الموجود الا عندما دعانى لقضاء ليلة رأس السنة فى بيته •

وفى الليلة المحددة ذهبت • كان بيته فى المعادى ، شقة بالطابق الاخير فى عمارة حديثة • أدهشنى ثراء البيت والعناية الكبيرة المتبدية فى تأثيثه وترتيبه • كانت أرضية الصالة مغطاة ببساط أبيض سميك الوبر يمتد من الحائط الى الحائط كذلك كانت وسائد الارائك والمقاعد الوثيرة من قماش عاجى اللون تتخلله خيوط ذات لمعة فضية أما الموائد الصغيرة فكانت مسطحاتها من زجاج دخانى اللون وضعت عليه منافض للسجائر مصنوعة من الفضة أو الكريستال ولمحت فى أحد الاركان زهرية ضخمة من الصينى الثمين عليها رسم تنين أسطورى وتحمل مجموعة من ريش الطاووس • سألنى عبد الموجود •

ـ ما رأيك ؟

ـ فخم ، ربما أكثر مما يجب !

قطب •

ـ وهل يجب أن يعيش التقدميون فى أكواخ ؟!

ثم ضحك •

ـ تعالى أعرفك على جين •

نادى عليها فجاءت • أدهشنى جمالها • كانت امرأة قوية الحضور بدا ذلك واضحا حتى قبل أن نتبادل حرفا واحدا ، طويلة ممشوقة القوام أميل للنحافة لها وجه جميل القسمات يعلوه بعض النمش

وشعر خيلى أقرب الى لون الحناء . وكانت تلبس ثوبا جميلامن القطن المطبوع . ابتسمت وهى تسلم على فبدت أكثر عذوبة وأقل قوة . قالت مرحبة بود أن عبد الموجود حدثها عنى فاندهشت للمرة الثالثة .

ما الذى أشعرني بانني وحيدة ؟ جلست بين المدعوين أبحث عن كلام أقوله فلا أجد ، ان توجه الى أحد بالحديث أجبت باقتضاب وعدت للصمت . ما الذى أتى بى الى هنا ؟ لازمنى السؤال طوال السهرة كما لازمنى شعور بالدهشة والحرج. كان عبد الموجود مشغولا عنى بضيوفه الاخرين . ربما استفزته عبارتى عن فخامة البيت وربما كان يتعمد اهمالى حتى لا يفتضح أمرنا ولكنه عندما انتصف الليل وأطفئت الانوار وتعالت الهمسات الضحكات فوجئت به يحيطنى بذراعيه ويقبلنى فانتفضت خائفة ثم اضيئت الانوار درت بعينى ابحث عن جين فلم اجدها ولما سألته عنها قال : « لابد انها فى المطبخ تستعد لتقديم العشاء » .

غادرت بيت عبد الموجود يثقلنى شعور بالغثيان وآلام فى الرأس وعندما وصلت الى البيت دخلت الى دورة المياه وانحنيت على المرحاض وتقيأت ، تقيأت كثيرا وطويلا حتى اننى جلست على الارض لصق المرحاض لا أقوى على الحركة .

فى اليوم التالى اتصلت به :

ـ أريد أن أراك .

ـ موعدنا بعد غد .

ـ ولكنى أريد رؤيتك الآن .

ـ لا وقت لدى ولكن لو كان الامر ضروريا جدا آتى ، هل تريدننى لامر ضرورى جدا ؟ .

ـ نعم .

جاء فقلت :

ـ عبد الموجود أعتقد أن الامور لا يمكن أن تستمر على ماهى عليه .

ـ لا أفهم .

ـ أقصد استمرار علاقتنا ... وجود زوجتك ...

ـ لماذا ؟

ـ ... ...

ـ لا أفهم ما الذى يقلقك . قلت لك وكنت صادقا اننى لم أعد مرتبطا بها . عاطفيا أنا حر ومن الطبيعى أن أنشىء علاقات تفى باحتياجاتى .

ـ ولكن زوجتك حاضرة في حياتك ، تعيش معك وتستقبل ضيوفك وتمد لك طعامك و ..

ـ لا تكوني ساذجة ٠

ـ لا أفهم ٠

ـ هناك اعتبارات عملية ٠ نعم جين زوجتي ، شريكتي في البيت وأم أطفالي هذا موضوع أما أن أحب وأصادق فهذا موضوع آخر ، من حقي

ـ وأنا ؟

ـ أنت في وضع أفضل مني لانك حرة تماما حتى من الارتبـــاط الشكلي ٠

كدت أقول له انني أريد الارتباط به بالشكل الطبيعي والمتعارف عليه بين البشر منذ آلاف السنين ، أن أتزوجه وأقيم معه وأنجب منه أطفالا ، ولكني أحجمت ٠

ـ لسنا صغارا ياسوسن وهناك أولويات والاولوية المطلقة عنــدي هي قدرتي على العمل ، على الكتابة والمشاركة الفعلية وهذا أمر لا يخصني وحدي بل يتعلق بدور علمي وثقـافي وســـــياسي نذرت نفسي له ٠ تصوري لو أنني كلمـا أحببت امرأة ركضت خلفها لأبدأ اطارا جديدا لحياتي لن أتمكن من كتابة أي شيء ولا المســـاهمة في أي فعل ٠٠٠ سأنتهي ٠ أنا اذن بحاجة الى الاستقرار لاكون منتجا ٠ تزوجت جين منذ خمس عشرة سنة ، لي منها بنتان وبيننا بيت وحياة مشـــتركة ، أحتاج هذا ولكني أحبك أنت ولا أرى تنافرا بين الأمرين !

ـ ولكن هذا الوضع مهلك لي .. وغير أخلاقي .

ضحك ٠

ـ أنت متخلفة ٠

ـ أنا ؟!

استجمعت شجاعتي وقلتها :

ـ ولكنني أريدك معي ٠ أريد أن تربطنا حياة مشتركة ٠

ـ هذه أنانية ٠

ـ أنانية ؟!

ربما شعر انه تسرع في الكلمة ٠ ربت على كتفي وهو يبتسم :

ـ تعرفين أنني أحبك ولكنني أفكر بشكل عملي وليس بمنطق « عش العصفورة يكفينا » لا أحد يعيش على الحب ياسوسن سوى الابطـال الاغبياء في الافلام العاطفية الرخيصة ٠

ـ ونحن طبعا لسنا أغبياء ولا حياتنا فيلما عاطفيا رخيصا ، أليس كذلك يادكتور ؟!

وذهبت وعلى فمي إبتسامة ساخرة ومرة باغتته كما باغتتني أنا نفسي فلم أعد لهذه النهاية ولم تخطر لي ببال . تركته ومشيت في طريقي الى البيت بهدوء واتزان كأنني لم أكن أركض تجاه رجل أحبه فاصطدمت بجدار من زجاج شج رأسي وجرحني وترك كدماته الزرقاء تعلم في جسدي .

ما الذي جعلني أقع في حب عبد الموجود اسماعيل ؟ شغلني السؤال لشهور وعندما طرحته على سميرة قالت : « لكل انسان قانونه النفسي » فقلت : « وهل قانوني هو الوقوع في حب الانسان الخطأ ؟! »

هادي . . الحب الاول . . ذلك الجنون الذي يعتري الطائر في السماء فيضرب بجناحيه كأنما أصابه مس من كهرباء أو حمى . أحبه أحب كل شيء فيه ، شعره الاجعد ، عينيه الصغيرتين نظارته الطبية ، فمه الكبير ، نحول جسده ، صفر جسمه ، ابتسامته الخبيثة ، بنطلونه « الجينز » وقميصه القطني .

همست لي زميلتي نجاح وهي تقف بجواري في طابور الصباح بالمدرسة :

ـ ذكريني في الفسحة ، سأقول لك سرا .

ـ ولماذا لا تقولينه الان ؟

ـ لا وقت ، ثم انه سر ، لابد أن نقف بعيدا حتى لا يسمعنا أحد .

ثم وهي تهمس في أذني :

ـ انه سر خاص بمظاهرات الطلبة .

على مدى الحصص الثلاث لم أفعل سوى انتظار انقضائها . أنظر في الساعة ثم أعود وأنظر في الساعة . هل شاهدت نجاح المظاهرات؟ ولكن كيف تشاهدها وقد كانت بالقرب من الجامعة في الجيزة وهي تسكن في عابدين ؟ لابد أن أحدا حكى لها ، ترى من الذي حكى لها ؟ أنظر في الساعة وأحدق في وجه المدرسة وهي تشرح الدرس وأفكر في السر . وأخيرا دق الجرس .

انتحينا جانبا تحت شجرة التوت الكبيرة . قالت نجاح وعلى وجهها تقطيبة من ينطق بأمر خطير :

ـ انه سر ، اقسمي ألا تفشيه لأحد .

ـ اقسم .

ـ لا ، قولي والله العظيم ثلاثة لن اقول .

ـ والله العظيم ثلاثة لن أقول .

قالت بصوت هامس رغم أننا كنا وحدنا فى ركن قصى من فنـاء المدرسة :

ـ أخى هادى اشترك فى المظاهرات بالامس وعاد الى البيت ورأسه مجروح ومربوط بالشاش الابيض ولما سأله أبى قال له انه كان يسمع معلقة أمرىء القيس فى فناء الجامعة ولم ينتبه فاصطدم بشجرة وجرح وذهب الى عيادة الكلية فربطوا له رأسه ٠

ـ وهل أخوك فى الجامعة ؟

ـ فى سنة ثالثة فى كلية الآداب ٠

ـ هل معك صورته ؟

ـ لا ٠

ـ غدا هاتى الصورة ، لا تنسى !

أتت بالصورة ، تطلعت اليها فرأيته جميلا وعندما ذهبت لزيارتهم وجدته أجمل ٠ كان يتحدث بطلاقة وثقة وكنت أفهم بعض ما يقول ولا أفهم البعض الاخر فيزداد انبهارى ٠

خبأت صورته فى كتاب التاريخ ، أفتحه وأتأملها : اسمه جميـل وشكله جميل وكلامه جميل ولكن الاجمل انه عبقرى ٠٠ أقـول ذلك لزينب فتضحك : « عبقرى ؟! » فأؤكد بثقة : « نعم عبقرى ! » ٠

كان فى التاسعة عشرة وكنت أصـغره بأربعة أعوام ٠ يقـول : « أحبك يا سوسن » وأقول : « أحبك ياهادى » نكتبها فى الرسائل نهمس بها فى التليفون ، نعيشها فى التقاء عيوننا وتلامس أيدينا فى اللقاءات الخاطفة ٠

وكان هادى يتقن التحليق فى الاحلام ، يطير كأنه طـائر ، طائر مدهش يلبس نظارات طبية ويدمن قراءة الكتب وترديد الاشـعار ٠ ويغنى لى أغنيته المفضلة :

في كل حي ولد عترة وصبية حنان
وكلنا جيرة عشرة وأهل وخلان
أميرة عاقلة وفى الحجلة ، العقل يطير
كانت صغيرة بضفيرة وكان هو صغير
ساعة ما تضحك مع أخوها تلاقيه بيغير
ولما ترفع قلتهم تلاقيه عطشان
زمانه ماشى بخطوة تضم
زمانها كبرت وبقت أم
زمان جواب جاييلها يجرى على العنوان

فى كل حى ولد عترة وصبية حنان

وكلنا جيرة وعشرة وأهل وخلان
الفجر بيلاقى المغرب وبيجى ويروح
والليل يرد على الشارع شباك مفتوح
هنا الرصيف وهنا السلم وهناك ياسطوح
متعلقة كمام النونو فى ديل الفستان
زمانها كبرت وبقت أم
زمان ضناهم فى المدرسة كنز الاوطان

التحقت بالجامعة فى نفس السنة التى عين فيها هادى معيدا بها بعد تخرجه وبدا لنا فى تلك السنة الاولى أن الجنة فتحت لنا أبوابها فدخلنا نتسكع فى أرجائها بخطوات كسولة نتحدث طويلا عن أنفسنا وعن الاخرين ، فى السياسة وفى التاريخ ، نخوض فيما مضى وما سوف يأتى ونطرح المخاوف والاحلام . نتحدث حتى يفيض الحديث عن الزمن المباح بين محاضرتين أو بين الوصول فى الصباح والمغادرة فى المساء . نودع بعضنا على دقات ساعة الجامعة ونخرج من البوابة الحديدية « غدا نلتقى » ونلتقى لنجد جنتنا على حالها مشرعة الابواب .

فماذا حدث ؟ كيف يتعكر ماء النبع ومن أين تأتى نباتات الوحشة وبأى قانون تتكاثر وتعيق المجرى وتسد الطريق ؟ قال « أنت المسئولة ! » كنت أحبه ، أكابر فى الصباح وفى الليل أبكى . فهل كان هادى يريدنى وردة بين يديه خالصة له وحده ترقبها العيون عن بعد فتحسده لانها له أم أننى كنت نافرة وعنيدة كما قال ؟! هل كانت يده التى تحيط بى يد العاشق التى تحمى وتضم أم كانت يدا تطوق وتمتلك ؟ أم كانت اليد واحدة فى الحالتين ؟ هل كنا طفلين عنيدين بددا قيمة بسلوكهما الاحمق ؟ وهل تدهور هادى لان علاقتنا تحطمت أم أن علاقتنا لم تدم لان شيئا بداخلى كأنه الحدس نفر وابتعد عندما لمح خللا كامنا ؟ كنت أحبه ، أتزين فى المرآة لاجله وأقبل عليه بلهفة العاشقة وعندما ألقاه نختلف ، يعلو صوتى ويعلو صوته ، نتشاجر ثم نتخاصم ، وفى المساء أفتح كتبى لكى أستعيد دروسى فلا أستعيد الا خلافاتنا وتضطرب الحروف أمام عيونى الدامعة !

ذات صباح ذهبت اليه وقلت : « أتركنى وشأنى ، سأرسب فى الامتحانات ، هل يمكن أن تتركنى وشأنى ؟ » تركنى . لم نلتق طوال شهرين ثم تصالحنا . وبدا ان الاوقات صفت وكذلك المياه التى عادت الى مجاريها ولم يكن هناك ما نتشاجر بشأنه . توقف نشاط

الأسرة بسبب الامتحانات ثم العطلة الصيفية واختفى كل الاولاد الذين كان يغار هادى من وجودى معهم ٠

بدأ العام الدراسي وبدأت الخلافات هذه المرة أعنف واحد عرفت بها نجاح فتوسطت بيننا في محاولة لمصالحتنا « كل الطلاب والطالبات عيونهم عليكما ، لقد حسدوكما ! » نهرها هادى أما أنا فضحكت ٠ حدجني بنظرة صارمة قال مواصلا الكلام :

ــ سوسن أنا لا أمزح ، لا أريدك بهذا الشكل !

ــ وأنا أيضا لا أمزح ، هذا شكلي وان لم يكن يعجبك انتهينا !

ولكننا لم ننته عام كامل من الشد والجذب ، واللهفة والتصادم ٠ اركض نحوه ويركض نحوى وعندما نلتقى يعلو صوتنا ونتشاجر ، أتركه غاضبة وفي المساء ينحسر الغضب ليحل محله حزن واهن ٠

أحكي لامين زميلي في الكلية وفي الاسرة :« تغير هادى يا أمين ، تغير ٠ أحاول أن أفهم غيرته ولكنى لا أفهم هذا الحرص الذى استجد عليه فجعله يخشى اية كلمة أو لفتة تهدد مركزه كمعيد . ولو افترضنا أن ذلك من حقه فكيف يحق له أن يطالبني بوقف أى نشاط بدعوى أن ذلك أيضا ينعكس على وضعه ٠٠٠ وماذا يفعل بى اذن عندما نتزوج ؟!» تجمعني بأمين صداقة وألفة تجعل الحديث يجرى بيننا في هدوء ويسر أفضى له بمشاكلي مع هادى ومع أمي ، أحدثه عن أبي وسعد وهو أيضا يحكي لى عن أهله في القرية وأبوه الذى أراد له أن يدرس في الجامعة ليصبح كالاستاذ عبد الصبور مدرس القرية التى يحلف أهلها بحياته٠ بعد انتهاء المحاضرات أجلس مع أمين لنناقش نشاط الاسرة الجامعية التى ننتمى اليها ونعد المادة التى سننشرها في جريدة الحائط وعندما ننتهى لا ننصرف كل الى حاله بل نمشى سويا في الطريق المؤدى الى كوبرى الجامعة نعبره ونواصل حتى نصل شارع القصر العينى فيتجه هو الى منطقة مجرى العيون حيث يسكن وأركب أنا الى ميدان مصطفى كامل ٠

في ذلك اليوم قال لى أمين انه يريد التحدث معى في موضوع هام فصحبته الى مقهى مطل على النيل بالقرب من الجامعة ٠٠ قال :

ــ تعرفين سميرة أليس كذلك ؟

كنت أعرفها عن بعد فهى زميلة لنا تصغرنا بعامين دراسيين وتشاركنا أحيانا بعض نشاطاتنا في الاسرة ٠ كانت فتاة سمراء دقيقة الملامح تتميز بتعليقاتها الساخرة وبديهتها الحاضرة وشىء من حدة عند الاختلاف ٠ قلت :

ــ أعرفها

ــ أريد التقدم لخطبتها ٠

ـ وهل فاتحتها في الأمر ؟
ـ لم أفاتحها ··· لم تواتني الجراءة · هل يمكن أن تسأليها أنت عن رأيها ؟
ـ هل تريد أن تفاتحها في موضوع حبك أم الزواج ؟
ـ وما الفرق ؟
ـ أليس من الافضل تأجيل مسألة الزواج بعض الشيء ··
ـ ولكنى أحبها ، أنا واثق من شعورى ورغبتى فى الارتباط بها · فاذا كنت تبادلنى الشعور لا أرى لماذا لا أسلك بالاصول واكتب لوالدى فيأتي من البلد ويطلبها من أهلها ·
قلت وأنا أضحك :
ـ تناقش في السياسة كأنك مولود فى هايد بارك وتبقى رغم ذلك ريفيا طيبا ! لما لا تتشجع وتأتى معى الآن الى الكلية وتقول لها : « سميرة أنا أحبك هل تحبينني ؟ » ·
لحظتها سمعته ينادى ، التفت باتجاه الصوت · كان هادى يقف على بعد بضعة أمتار · قلت :
ـ أهلا يا هادى تعال
قال دون أن يتحرك من مكانه :
ـ لو سمحت أريدك دقيقة ·
قمت اليه متوجسة ، كان وجهه متكدرا ·
ـ ماذا تفعلين مع هذا الرجل ؟
ـ لماذا تقول : « هذا الرجل » انه أمين وأنت تعرفه ·
ـ أجيبى على سؤالى ، ماذا تفعلين مع هذا الرجل ؟
ـ نتحدث !
ابتسم متهكما :
ـ فى أمور الدراسة ؟!
ـ لا ، فى مسألة شخصية ·
ـ سوسن أنت سافلة !
قالها فى هدوء صارم كأنه قاض ينطق حكما ··
ـ أنت السافل !
أدرت ظهرى وعدت للجلوس مع أمين · بعد أسابيع عندما علم هادى بأن أمين خطب سميرة جاء واعتذر ، قال انه اخطأ ، قال انه بحاجة لى ولكننى كنت قد أدرت ظهرى ومضيت مبتعدة ·

ضغطت على الجرس وانتظرت حتى فتحت لي امرأة سمراء نحيلة تلبس ثوبا منزليا من القطن المنقوش ·

ـ جئت لمقابلة السيدة زينب عبد الحميد ·

دعتني المرأة للدخول ·

ـ اسمي سوسن كمال ، هي لا تعرفني ولكن ·

قاطعتني المرأة :

ـ هل أبوك مريض ؟

اذن فالمرأة أمها أم أنها المربية والامر مشاع ؟ قلت بحدة :

ـ هل بامكاني رؤية مدام زينب ؟

ـ أنا زينب يا سوسن !

حدقت فيها ، كانت المرأة التى هتفت بحميمية : « أنا زينب يا سوسن » قد تجاوزت الستين وكان هذا آخر ما توقعته ·

عندما أخبرني أبي بالامس وهو فى غرفة العناية المركزة بالمستشفى انه متزوج من امرأة أخرى وانه يريد مني أن أذهب اليها قبلت رأسه ووعدته أن أفعل ولكن ما ان غادرت باب المستشفى حتى انفلتت بصدري دوامة عاتية من الانفعال ولم يكن أبي هو مركزها بل أمي شاحبة الوجه تروح وتغدو فى الممر المجاور لحجرته تذرف الدمع وهي تعدد مزايا الزوج طوال خمسة وثلاثين عاما · كنت غاضبة ومتمردة أكرر لنفسي أن الرجال سفهاء وأنانيون ·

ـ يريد أن يراني أليس كذلك ؟

ـ انه يريد أن يراك ·

بدأت تبكي وبدا لي الامر كابوسا · أردت واجتهدت فى ايجاد شيء أقوله ولم أجد فقمت لانصرف وقلت وأنا أصافحها :

ـ سآتي غدا فى الخامسة مساء لآخذك اليه ·

لم أنتظر المصعد ، هرولت على الدرج · ما الذى حدث ؟ لم يطلب مني أبي أن آتي بها اليه . فلماذا قلت لها ذلك ؟ وما الذى تعنيه لى حتى أشفق عليها ؟

رقاد أبي مريضا هكذا بلا حول ولا قوة يوجعني · أرغب فى تدليله والحنو عليه رغم ذلك فزواجه من امرأة ثانية ثمرة مرة تترك

علقمها في حلقي سواء بلعتها أو بصقتها ٠

مات أبي ٠ أمي تنتحب وتلطم وتشق ثوبها وتنادي سعدا وهو بجوارها وتبدو واهنة ومسكينة كأنها ليست خديجة هانم ، الملكة ، التي يستنفر دبيب خطواتها في ممرات المستشفى كل العاملين به ٠ أراقبها وأبكي في صمت ، وأعي المرأة الاخرى فأبكي أكثر ٠

انتقلت للاقامة مع أمي حتى انقضاء أربعين الحداد ٠ ألمها الذي بدا فائرا في الايام الاولى سكن وتحول الى حزن صاف تتركز في قاعة ركدة ثقيلة وداكنة كركدة القهوة المرة التي تشربها مغلية مرات لا تحصى أثناء الليل والنهار ٠ لم تعد تنتحب ، أو تصرخ أصبحت شاحبة وساكنة ٠

بعد الاربعين بيوم واحد تشاجرت أمي مع سعد ٠ قال لها سعد انه سيعود للاقامة في الاسكندرية لان السفر يوميا مجهد فقالت له أنها تريده أن يترك عمله هناك لينتقل نهائيا الى القاهرة ٠

ـ لتكون بجوارنا ، وأيضا لأن المستشفى بحاجة لك ٠ سعد لقد صرت طبيبا لتدير هذا المستشفى ٠

ـ ماما أنا لا أريد ولا أقدر على ادارة المستشفى ٠

ـ كلام فارغ ٠٠٠ أنت الآن رجل مسئول وعليك أن تعود الى القاهرة لتتحمل مسئولياتك ٠

ـ ما رأيك يا ماما في بيع المستشفى ؟

اندفعت أمي تصرخ فيه كأنه لم يتجاوز السابعة من عمره :

ـ اخرس ، أبوك لم يتعب في بناء هذا المستشفى لكي تبيعه بعد ساعات من وفاته ٠ اخرس يا وقح !

تدخلت زينب وتدخل مجدي وتدخلت راندا قالوا أن سعدا لم يقصد وانتهى الامر بسعد يعتذر ويقبل رأس أمي فانسالت الدموع من عينيها أما هو فكان وجهه جيريا كالحجر ٠

غادرت المنزل لا أقصد مكانا بالتحديد أشعر بصداع في رأسي وبوادر غثيان ٠ وكانت أصوات أمي وسعد والآخرين مازالت تطن في رأسي ٠ ذهبت لزيارة سميرة فلم أجدها فواصلت المشي في الشوارع ولم أنتبه الا وأنا أقف أمام بابها أدق الجرس ٠ ما أن فتحت الباب حتى أحاطتني بذراعيها وبدأت تنتحب وتكرر :

ـ أخص عليك يا سوسن واحد وأربعون يوما وأنا أنتظرك ، كل يوم وكل ساعة أقول تأتي ولا تأتين !

عقدت الدهشة لساني وبدت لي المرأة غريبة الاطوار ٠ كانت الألفة التي تحدثني بها وما تتعشمه من سلوكي يثير الاستغراب حقا

(تذكرت الطريقة التى قالت بها « أنا زينب يا سوسن ! » المرأة السابقة كأن علاقة حميمة تربطنا تجعلها ما أن تنطق بهذه الكلمات حتى ألقي بنفسي على صدرها أقبلها وأحتضنها !) هى فعلا غريبة الاطوار وهاهى قد جلست ملاصقة لى وامسكت بكلتا يدى بين يديها كانت تسألني عن زينب وسعد وأمي فأجبتها باقتضاب دون أن أفهم شيئا · طلبت أن أذهب الى الحمام وقالت أنها ستصنع لى كوبا من الشاى « أم تفضلين القهوة ؟ » « قهوة » في الحمام وضعت رأسى تحت الصنبور وتركت الماء البارد ينسكب على شعرى · سألتنى وهى تقدم لى القهوة :

ـ هل بللت شعرك يا سوسن ؟

ـ عندى صداع

ـ هل آتى لك بمسكن ؟

ـ لا داعى ، سأشرب القهوة ·

خيم الصمت وبدا أن المرأة غارقة فى عالمها وددت لو كانت تجلس فى المقعد المقابل تجلس فأتمكن من رؤيتها دون أن أختلس النظر اليها · كانت امرأة نحيفة بشرتها فى لون القمح عندما تلوحه الشمس تماما فيصبح كالبن الفاتح وكان وجهها رغم تقدمها فى السن يكاد يخلو من التجاعيد · كانت المرأة قد احتفظت بجمالها الخاص يؤكده شعر أسود أملس خطه شيب قليل ـ جدلته فى صفيرتين طويلتين ·

ـ وما العمل الآن يا سوسن ؟

تطلعت الى بشىء كالرجاء ولم أجد ما أقوله · خيم الصمت ثانية ثم قالت :

ـ أنت لا تعرفين ، لم يكن زوجي فقط ، لعبنا معا ونحن أطفال ولما كبرنا بدا وكأن الدنيا لا تأخذ كل منا فى طريق الا لكى تعيدنا فنلتقى ·

قلت انى ذاهبة ، لم تستبقنى ·

لم أنم طول الليل · تارة أشعر أن سلوكى معها كان قاسيا وتارة اخرى أشعر اننى محقة ويملؤنى الغضب وانا انتصر لنفسى «هذه المرأة فى النهاية تتحدث عن علاقتها بأبى ، علاقة كانت أمى الطرف المخدوع فيها عمرها بأكمله » أقول اننى قسوت ثم أقول اننى لا أشاهد فيلما سينمائيا على شاشة تعود قماشية وبيضاء ما أن تتوقف آلة العرض وتضاء الانوار ، لست حجرا ! أشعر أن الواجب والانسانية كان يقتضيان أن أنصت لهذه المرأة الوحيدة ثم أضيق بالامر كله وألعن

اللحظة التي أطلعني فيهـــا أبي على سره وأقرر أن مافعلته هو العقل بعينه • مات أبي ودفن فليدفن سره معه • لن أذهب الى هذه المرأة بعد ذلك • لا أحد يسعى الى الالم بقدميه ، ولتذهب الى الجحيم أو الجنة ، لا شأن لى بها !

ورغم ذلك الرأى الذى بدا أننى اســـتكنت اليه في نهاية ليلة مؤرقة فقد ذهبت اليها ما ان انتهيت من عملى فى اليوم التالى • قلت لها بصراحة ربما فاجأتها أننى جئت لاعرف منها حكايتهـــا مع أبى • « لكى أفهم ، وربما لو فهمت أتصرف بشكل أكثر اتزانا » •

بقيت في بيتها من الرابعة بعد الظهر حتى الســـاعات الاولى من الفجر وعندما أردت الانصراف لم تسمح لى : « لان الوقت متأخر ولا يصح أن تنزلى بمفـــردك فى هذه الســـاعة » ثم بشيء من تلعثم : « لست ضيفة في هذا البيت •• » وكادت أن تكمل ثم توقفت •

يومها حكت لى زينب عبد الحميد قصـــتها مع أبى كأنها فيـلم سينمائى طويل شاهدته فى جلسة ممتدة لم تقطعه سوى فواصـــل قصيرة شربنا فيها الشاى والقهوة •

« كان جدك صفوت يسكن فى احدى الشقق بعمارة ســـكنية من أربعة طوابق بالاسكندرية وكان أبى رحمـــه الله يعمـل بوابا بنفس العمارة ، هاجر من أسوان فى شبابه بحثا عن لقمـة العيش ثم تزوج بأمى وهى من الاسكندرية وخلف منها أربعة كنت أصـــغرهم • كنا جميعا نسكن حجرة واحدة بالطابق الارضى للعمارة . وكان أبى رغم فقرنا شديد الكرم يحسن وفادة الضيوف من أقارب ومعارف وبلديات وأغراب يعاملهم معاملة الاهل لانهم أقارب للمعارف والبلديات ، كان أميا يؤمن بالله والتعليم • يكرر علينا : « لو تعـلمتم يا أولاد تنفتح أمامكم كل الابواب المغلقة » وأذكر أنه عندما نجـــح أخى محمد دون تفوق ضربه أبى ضربا مبرحا وهو يصيح فيه هائجا « ياحمـــار يا ابن الكلب أضعت على نفسك المجانية فكيف لى أن اعلمك ! » •

كانت أمى تقضى النهار فى غسيل ملابســـنا واعداد أكلنا الذى يشاركنا فيه أى ضيوف مفاجئين وتمسح سلم العمـارة فى حين يقضى أبى اليوم فى شراء لوازم السكان ليجمع قروشـــا اضافية تفى بلوازم تربيتنا وتعليمنا و « اللقمة الهنية اللى تكفى مية » •

كان كمال طفلا وحيدا وكنا أربعة وكان يحب أن يلعب معنـا فى بئر السلم أو أمام البيت • نتفق ونختلف ونتشاجر ونتصالح كعـادة الاطفال وعندما يعود أبوه من عمله ويقول له « اطلع يا كمـال لتأكل

يقول : « ســآكل عند عم عبد الحميد » فأسمع ابوه يقول له : « انت وش فقر ! » ولكنه يتركه يأكل معنا .

كنا نتناقر أنا وكمال . هو يقول أن الاولاد أحسن من البنات لانهم اقوى وأذكى « أنا مثلا أشطر منك فأنا أقرأ الفرنسية وأكتبهــا وأنت حمارة لا تقرأين الا فى كتاب المطالعة الرشــيدة » فأقول له : « أنت أكبر منى بسنتين ومع ذلك أنا أســتطيع عبور شارع الترموای وشراء صندوق من زجاجات المياه الغازية احمله على راسى وأعود به وأصعد الى الطابق الرابع عندما تطلب منى أمك ذلك ، وأنت لاتســتطيع ! » كان كمال يذهب الى « كلية ســان مارك » تأتى ســيارة المدرسة لاخذه كل صباح فينزل بالزى الخاص بالطلاب وفى يده حقيبة جلدية ويركب . أما أنا واخوتى فكنا نذهب الى المدرســة الابتدائية القريبة سيرا على الاقدام بملابسنا العادية نحمل كتبنا فى أكياس من « الدمور » تصنعها لنا أمى .

ثم تركنا البيت ، صمتت المرأة ، ترك أبى عمله بسببى ســكتت مرة أخرى ، بسببى أنا وكمال . لم يحدث شىء ولكن أبى كان صارما وخائفا أيضا ، وربما كان على حق . كانت والدة كمــال قد نادت على وطلبت منى شراء أغراض من البقال . اشتريت وصــعدت لاعطيها ما طلبت ولكنها لم تكن فى البيت . قال كمال انهــا خرجت ودعانى للدخول . كانت أمه تكره أن يدعونا الى البيت وربمــا كان ذلك هو السبب الذى جعله يدعونى وجعلنى أقبــل . دخلت معه الى غرفته وأجلسنى على السرير وأتى لى بألعابه ورحنا نلعب ونضحك . جاءت أم كمال وفتحت الباب ورأتنا نجــلس متجاورين على السرير فوبخته وطردتنى . ولا أدرى ما الذى قالته لابى ولكنه فى المساء انهال على ضربا حتى أسال دمى وقال : « لو سمعت انك دخلت بيتهم ساقتلك ! » وفى اليوم التالى أعلن أنه سيبحث عن عمل آخر واننا سننتقل .. وانتقلنا

كنت فى الخامســـة عشرة عندما عرض على أبوك الزواج للمرة الاولى . ضحكت وقلت « كيف ؟ » قال « أخطبك وعندما أعود طبيبا من انجلترا نتزوج » كنا صــغارا ولكنى كنت أحبه . دخلت مدرســة الحكيمات من أجله . سافر ليدرس الطب ويصبح طبيــبا وأردت أن أكون طبيبة مثله ولم تمكننى الظروف فدخلت مدرسة الحكيمات .

غاب أبوك تسع سنوات زار فيها مصر أربع مرات . كان شــابا وسيما لم أر أجمل منه ولكنه عندما عاد بعد ســنتين من سفره كان يبدو كالنجوم الذين تراهم فى الافلام الاجنبية : الشــارب الاشقر

الصغير ، الشعر الناعم المفروق من الجنب بعناية والملابس الانيقة ·· قال لى انه يحبنى ولا يريد الا أنا ولكنى كنت متوجسة يحدثنى قلبى انه لم يعد لى · وعندما سافر بعد زيارته الثالثة بكيت بحرقة من يودع الى الابد وصدق حدسى · أصبحت رسائله كالاعياد لا تأتى الا مرة فى السنة · وعندما مرض أبى قال لى وهو على فراش الموت : « يا زينب جاءك أكثر من عريس ورفضت · ان كنت تنتظرين كمال فانت واهمة · البهوات أنذال لا يحكمهم شرف ولا تربطهم كلمة » فقلت له « أنا لا أنتظر أحدا وكمال تربى معنا وهو كأخى لا فرق » وكنت أكذب !

عندما عاد أبوك من الخارج نهائيا لم يخبرنى لا قبلها لانتظره فى الميناء كما فى المرات السابقة ولا بعدها فألتقى به ثم عرفت أنه خطب وتزوج · وكنت أعمل حكيمة فى مستشفى بالرمل · فى الاول كذبت الخبر ثم مرضت ·· كانت أياما صعبة اســـتمرت ثلاث سنوات ثم تزوجنا وكان ذلك منذ ثلاث وعشرين سنة · احتفظت بعملى وبقيت فى الاسكندرية لعدة أعوام ثم أصر أبوك على تركى العمل وانتقـــالى الى القاهرة · استأجر لى هذه الشقة وانتقلت · والآن ذهب كمال ولم يعد هناك معنى للبقاء » ·

دخلت لانام وأنا فى حالة من الاعياء الشديد وقررت اننى ســـوف أقضى ليلة ثانية من الارق بعد كل ماسمعت وأيضا لعـــدم تعودى على المكان ولكن ما أن وضعت رأسى على الوسادة حتى رحت فى ســـبات عميق ·

طوال أسبوعين كنت أذهب الى عملى ثم أذهب الى أمى أقضى معهـــا بعض الوقت ثم أعود الى بيتى وفى الطريق أتوقف عند بقال مجـــاور أتصل تليفونيا بزينب عبد الحميد « هل أنت بخير ؟ هل تريدين شيئا؟ اذن مع السلامة » أفعل ذلك يوميا وبشكل آلى وأعرف أن الساعات منذ مغادرتى البيت فى الصباح حتى عودتى اليه بعد المغـــرب ليست الا طريقا الى لحظة اقصدها أختلى فيها بنفسى وأغربل هذا الكم الهـــائل الذى اختلطت فيه حبات القمح الاخضر بالحصى والقشر والطين الى حد بدا معه أنه لا قمح هناك وصرت أتساءل ان لم تكن الحكمـــة تقتضى أن ألقى بذلك كله الى سلة المهملات وأنتهى ·

كان أبى قد اســـــــتطاع أن يحتفظ لاكثر من ربع قرن بزوجتين احداهما فى العلن معترف بها ولا تعلم ، والثانية فى الظل لا يعـــرف بوجودها أحد وان كانت هى تعرف بوجود الجميع ، فمن الطيب ومن الشرير فى هذه الحكاية ؟ وأى الزوجتين ، الاولى أم الثانية ، هى التى أخذت ما ليس لها ، وأيهما الاولى أصلا وهل زواج أبى من زينب يؤكد

«نذالة البهوات» أم يبرئه شخصيا من النذالة رغم كونه من البهوات ؟!
كانت الحكاية التي قصتها على زينب عبد الحميد تطرح على شيئا كاللغز فهل كانت لغزا رخيصا أم انها الحياة تؤكد سقوط المسطرة والخط المستقيم ؟ وهل كانت المرأة صادقة فيما سردته وما هي حقيقتها ؟ هل هي المرأة التي أحبت بوفاء وعمق فأعطت كل شيء وارتضت حياة الهامش بقرب الحبيب أم انها الفتاة الفقيرة اشرأبت بعنقها تطلعا الى الفتى الثرى الوسيم فما نالها الا تقطع جذورها في الارض وذبولها بلا ثمر ؟ وكيف لى أن أتعامل مع هذه الحكاية بموضوعية المشاهد الخارجي وأنا طرف لان أبى وأمي طرفان فيها ؟ وهل يكون موقفي هو نفسه لو كنت ابنتها ولست ابنة خديجة ؟

تنهكنى الاسئلة فأزداد نحولا بشكل ملحوظ يرده الناس الى حزنى على أبى وتؤكد سميرة أن هناك مايشغلنى وأخفيه « فما الموضوع ؟ » أريد أن أحكي لها وأخشى أن تلقى فى وجهي بحكم قاطع من أحكامها : « أبوك نذل والست زينب بلهاء أضاعت عمرها بلا ثمن ! » لمن أحكي اذن ؟ قررت السفر الى سعد فى الاسكندرية · هو لا يعلم شيئا ولكن الامر يخصه فالرجل أبوه والمرأة زوجة أبيه وأنا أريد التحدث مع من يفهم ·

سافرت الى الاسكندرية واستقبلنى سعد وراندا فى محطة القطارات · فى الطريق الى البيت وجدت سعدا منكمشا وعازفا عن أى حديث ، وكل ما قاله قاله تهذبا ومجاملة فماذا حدث ؟ وعلى العشاء لم يقطع صمتنا سوى صوت الشوك والملاعق والسكاكين وصب الماء فى الاكواب · تعشينا ورفعنا الاطباق عن المائدة ووقفت مع راندا فى المطبخ وهى تعد القهوة ·

ـ ماذا حدث ياراندا ·· سعد ماذا دهاه ؟
ـ منذ عاد من القاهرة وهو منكمش ومعرض · لأ يذهب الى عمله ويظل نائما حتى الثالثة بعد الظهر وعندما يستيقظ لا يخرج وفى الغالب يشكو من صداع حاد ويقول أن الضوء يصيبه بالغثيان · يفضل أن يجلس وحده بلا ضوء فى حجرة النوم وعندما ألح عليه فى الجلوس معى فى الصالة يجلس كالغائب أساله : « هل نمت يا سعد ؟ » يقول : « لست نائما ، أسمع ماتقولين ، واصلى حديثك » ولكنى أعرف انه لا ينصت ·
مسحت راندا دمعة بظهر يدها ·

ـ سعد شديد الحزن على وفاة عمي كمال ، هذا صحيح ، ولكن الصحيح أيضا أنه معرض عني ولا يريدنى ·

ـ غير صحيح ، أنه يحبك ويحتاجك · هو متعب ، هذا كل ما فى الأمر ·

ما أن شربنا القهوة حتى قالت راندا : « تصبحان على خير » وانسحبت الى حجرة نومها وطلبت أنا من سعد أن ننتقل للجلوس فى الشرفة · سعد يقطن فى الطابق العاشر بعمارة لا تبعد كثيرا عن الشاطىء · فى ضوء النهار يمكن رؤية البحر من زاوية بعينها من الشرفة أما فى الظلام فيبقى البحر حاضرا عبر صخب الامواج وصوت ارتطامها بالشاطىء والرائحة النفاذة ·

ـ ما بك ياسعد ؟
ـ كما ترين !
ـ لم نعد صغارا . . والموت
ـ ليست هذه هى المسالة ·
ـ ما الذى تريده يا سعد ؟

خلع نظارته فبدت عيناه الخضراوان تماما كعينى أبى وان تميزتا عنهما بمسحة طفولية لم يفقدها مع الوقت ·

ـ المشكلة يا سوسن اننى لم أعد أريد شيئا ، لا اريد اى شيء !

ليست المشكلة فى ذهاب بابا ، المشكلة فى ماما · لا أدرى من أين أتتها هذه القدرة العبقرية على تحويل الاشياء الى رماد ، حبى لها ، ارتباطى بها ، أحلامى ، فرحى ، حزنى ، كل شيء ·

ـ هذا مافعلته فى الماضى ، أنت الآن مستقل عنها ، هى فى القاهرة وأنت فى الاسكندرية فلماذا الاكتئاب الآن ؟

نظر الى بمزيج من عتاب وتساؤل :

ـ هل تغضين الطرف عن الحقيقة ؟
ـ سوف أعد فنجانا من القهوة ، هل آتيك بفنجان ؟

قمت الى المطبخ · ملأت الدلة بالماء ثم القمتها البن · ما الذى فعلته أمى بسعد ؟ ولماذا فعلت ما فعلته وهى تحبه أكثر منى ومن زينب ؟ فارت القهوة ولوثت موقد راندا الابيض الناصع فانهمكت فى البحث عن شيء أنظفه به · نظفته وغسلت الدلة وملأتها بالماء والقمتها مرة أخرى بالبن ووقفت أتابعها بتركيز حتى لا تفور · سعد متعب لم

أره هكذا أبدا . لا مجال للحديث عن زينب عبد الحميد أم أحدثه في الامر لعله يتشغل به عن حزنه واكتئابه ؟ فارت القهوة للمرة الثانية فبدأ لى أني أصلح لمشهد في فيلم فكاهي صامت ومع ذلك كنت حانقة على نفسي وأنا أعيد الكرة وأنظف الموقد وأملأ الدلة .. في المرة الثالثة لم تفر سكبتها في فنجالين حملتهما الى الشرفة . قال سعد :

ـ كلما أنجزت أو حتى أردت انجاز شيء جميل دمرته أمي ودمرت معه جزءا مني . نسفت حلمي في أن أكون فنانا وعندما ذهبت الى باريس ، اتذكرين ؟ اعادتني كالكلب . جرتني من رقبتي من الفندق الى الطائرة والمصيبة انني تبعتها ! كتبت لصديقتي الفرنسية التي ودعتها في المساء على أن نلتقي صباح اليوم التالي ، كتبت لها أشرح وافسر وأعتذر مرة ومرتين وثلاث ولم تجب سوى برسالة من سطر واحد : « لقد خذلتني وأعتقد انك خذلت نفسك أيضا » .

ـ سعد كل ذلك انتهى ، أنت الآن مستقل بحياتك و ....

ـ أية حياة ؟! الحقيقة أن صديقتي الفرنسية كانت رغم صغر سنها حكيمة أنا فعلا خذلت نفسي وها هي حياتي الأن ، بين يدى رماد !

ـ ولكنك طبيب لك دور ثم ان هناك راندا والطفل القادم .

ـ طبيب دون المتوسط وزيجة لم أتحمس لها وطفل لا أريده ... ما أجملها من حياة !

كان وجهه شاحبا وشفتاه مرتعشتين وكان يحدق في كأنما يشهدني على ما يقول .

لم ينطق أى منا بكلمة بعد ذلك . جلسنا ساكنين على خلفية ارتطام الامواج بالشاطىء وكسارات الموج حتى قمنا لننام .

لا أدرى ما الذى أصابنى ، اعترتنى رغم سخونة جسدى قشعريرة فتدثرت بالغطاء . رأسى يوجع وصدرى ثقيل كأنما أحمل عليه حجرا وعظامي تؤلمنى أحس باعياء شديد يجعل مجرد تقلبى فى الفراش مهمة صعبة أتجنبها . بقيت متعبة ومؤرقة فترة بدت لى طويلة لا نهاية لها وعندما غفوت كان نومي متقطعا تخللته الاحلام والكوابيس .

في الاول رأيت أمي . كانت أصبى وأحلى تلبس ثوبا ربيعيا من القطن المنقوش بالالوان الزاهية . كانت تضحك . ثم جاء شرطى وقال انه يريد أن يحقق فى حادثة القتل واقتادنا جميعا للتحقيق .

ثم دق ساعى البريد الباب . قال جئت لاعتذر عن الخطأ فى البرقية ليس أبوك الذى مات ولكنها أمك . سألنى : « ألست ابنة الست ؟ » أجبت : « لا ، أنا ابنة الجارية ! » .

رأيت أبى قال : « ليس بامكانك أن تكونى طبيبة يا سوسن دون أن تدخلى المشرحة » · دخلت مكرهة وعندما كشفوا الغطاء عن الجسد المسجى بدأت أصرخ : « لا أريد ··· لا أريد ! » ·

ولكن سعدا لم يصب بسوء . كان يقف بالقرب منى ويسألنى هل تشعرين بتحسن ؟ » أنحنى على وابتسم بعذوبة فبدا وجهه وديعا وحانيا · راندا أيضا هنا · لا ليس حلما بل مشهدا واقعيا · أيقنت من ذلك فانتبهت لكونى مريضة فى السرير ·

لزمت الفراش عشرة أيام · فى اليومين الاولين اعترتنى حمى ثم انخفضت الحرارة الى معدل أقرب للطبيعى وان بقى الاعياء وآلام الرأس والصدر · وجاءت أمى من القاهرة وشعرت للحظة أن حالة من التواؤم تحتوينى وكل من فى البيت ·

ـ اني ذاهبة !

قالتها سميرة وهى تغادر مقعدها وتخترق صفوف الجالسين فى القاعة قاصدة الباب . لحقت بها على الدرج وقلت بشيء من احتجاج :

ـ كنت أرغب فى الاستماع الى المحاضرين حتى النهاية .

ـ ولماذا لم تبقى ؟

ـ لأنك قمت فلماذا قمت ؟!

ـ لأن مرارتى لم تعد تحتمل !

سرنا فى الشارع الكبير المؤدى الى الميدان . لم تقل شيئا ولم اقل شيئا . وعندما وصلنا الميدان اقترحت ان نجلس فى مقهى لنتناول الشاى ولكنها قالت انها تفضل العودة الى البيت . اقترحت ان تأتى لقضاء الليلة معى ، رفضت .

ربما أخطأنا فى الذهاب الى تلك الندوة . كان الأمر كئيبا وسميرة على حق . كان المتحدثون ثلاثة أحدهم وزير سابق والثانى كاتب سياسى معروف والثالث نقابى بارز قضى ثلاثة عشر عاما من عمره فى معتقل الواحات لنشاطه السياسى . ربما دفعنا للذهاب حب استطلاعنا بشأن اجتماع ثلاثتهم فى تلك الندوة وان كانوا سيقدمون مواقفا متباينة أم عكس ذلك . بعد دقائق من بدء ثالث المتحدثين وهو خريج الواحات غدا واضحا أن الأمر « عكس ذلك » .

ما الذى يجعل مناضلا قديما يصاب بالحول فيفشل فى رؤية الحقيقة التى لا تفوت تلميذا منتبها بالسنة الاولى بالجامعة ؟ .

اختلفت مع سميرة حول الدكتور عبد الموجود اسماعيل حتى بعد ان قطعت علاقتى به ، وكان أمين يناصرنى فننبرى معا للدفاع عنه وكانت هى تكرر بعناد « انه انتهازى وسوف تثبت لكما الأيام !» أثبتت الايام أنه أكثر تعثرا مما قدرت وكان ينشر تلك المقالات المطولة فى الجرائد يطلق فيها الفتاوى والتحليلات التى تتنكر لأبجديات الصراع الاجتماعى الذى كان هو نفسه اول من فتح عيوننا عليها فى الجامعة . كف أمين عن الدفاع عنه وكدت أنا أيضا أكف لولا شراسة سميرة فى هجومها عليه الذى كان يستفزنى للرد ، أقول لها :

ـ انه يخطىء لا اختلف معك فى ذلك ولكنه حسن النية وهو

، لا يقول ما يقوله ارتزاقا . انه يجتهد فيما يعتقد أنه الصواب وهذا انساني ومشروع !.

فتشتعل سميرة غضبا وتلقى باجاباتها كمدفعية ثقيلة :

ــ لا ياحبيبتي هذا ترف ! عندما يلبس عبد الموجود اسماعيل عمامة مفتى الديار ويشرع فى وجوهنا ما يدعى أنه مفتاح الحقيقة ويرهبنا بمركزه العلمي الى حد تكذيب أنفسنا والمشى وراءه الى سكك الخيبة والندامة لا أقول مسكين أخطأ دون قصد وهذا انساني ومشروع بل أقول يمينى ومخرب وابن ستين كلب !.

وصلت الى البيت واعددت لنفسى كوبا من الشاى وشريحة من الخبز بالجبن وقد تملكنى السؤال « من أين تأتى الفشاوة على العيون ؟ » كان الجالسون على المنصة هذه الليلة سواسية مختوم على قلوبهم . اقلقنى الأمر واغاظنى ولكنى لم أشعر بذلك الغضب المر الذى شعرت به سميرة فهل موقفها هو الموقف الطبيعى الأصيل أم ان المسألة ثأر شخصي يلون رد فعلها بهذا العنف القاتم ؟ هل حكاية أمين هي المحرك أم أن هذه الحكاية نفسها هى الدليل والامارة انها على حق فى مرارتها وعنف ادانتها ؟.

آويت الى فراشي وحاولت النوم ولكنه استعصى : أتانى بدلا من النوم أمين حاضرا كأننا لم نواره التراب قبل عامين تميزه نفس النظرة الآسرة التى تمتزج فيها الدهشة بشيء من عتب .

عرفت أمين قبل أن أعرف سميرة وهو الذى حدثنى عنها عندما وقع فى حبها . كان قد جاء الى العاصمة من قريته فى الريف حاملا سلة بها ملابسه ونسخة قديمة من الف ليلة وليلة وكتاب المعذبون فى الارض لطه حسين .. وبقى حتى أن درس فى الجامعة وتخرج منها على حيائه الريفى . لم تواته الجرأة على قول كلمة احبك لسميرة .. عرض عليها الزواج فوافقت فأرسل الى والده فى البلد ليأتى لخطبتها وأتى ، وكانت المرة الاولى التى يزور فيها القاهرة . يوم الخطبة قال وهو يضحك : « لا أخفى عليكم عندما أخبرنى أمين برغبته فى الزواج من زميلة له فى الجامعة كدت أقول له « مالنا نحن وبنات مصر » ثم قلت لنفسى « أنت ارسلت ابنك الى القاهرة ليتعلم ويتنور أتركه يختار من تليق به » ثم وهو يواصل ضحكته ويربت بيده على صدره « وكان نعم الاختيار ونعم النسب » فتورد وجه خالتي سيدة وابتسم عم مصطفى باعتداد ، أما سميرة فأجابت ضاحكة : « لا تتسرع يا عمى ، انتظر عندما نعيش معا وستكتشف ان زوجة ابنك ليست بسيطة ! »

ولكنهما لم يعيشا معا . ذهب امين ، دهمته سيارة وحمله المارة الذين لا يعرفونه غارقا فى دمه . هل كان قضاء وقدرا ؟ هل كان يسير محدقا فى همه الثقيل فلم ير السيارات المسرعة فى الطريق أم قصد أن يقتل نفسه وقد تمكن اليأس منه ؟.

« انتحر ؟! » تقول سميرة مستنكرة وهى تكاد تثب متنمرة على من يجرؤ على النطق بها . « مستحيل لأنه حدثنى بالتليفون قبل الحادث بساعة واحدة وقال لى انه خرج لتوه من بيت عبد الموجود قال : « تشاجرنا قلت له انه سافل فانقض على وكاد يكسر ذراعى وكدت أطبق على عنقه ثم قلت لنفسى عمرك خسارة يا ولد يضيع على كلب ! » فكيف يقول هذا الكلام ان كان ينوى الانتحار ثم ان أمين ليس الانسان الذى ينهى حياته بيديه . دمه فى رقابهم مهما قالوا وادعوا ! » .

فى الليلة السابقة على الحادث التقى بها امين واخبرها أنه سيذهب الى عبد الموجود اسماعيل لينقل له رايه فى كتابه الاخير . حاولت سميرة أن تثنيه قالت له لا داعى ولا فائدة وربما كان من الافضل ان يفتضح امره هو وأمثاله لكى لا يمشى وراءهم أحد ولكن أمين أصر : قال ان من حقه وواجبه أن يسمعه ما لديه « هو يعلن نفسه مفوضا باسم الغلابة ، اليس كذلك ؟ اريده ان يعرف اننى والعشرات من أمثالى نعتقد انه يبيع الغلابة بثلاثين قرشا ! » .

سميرة موقنة أن امين لا يمكن أن ينهى حياته قاصدا وأنا اتساءل لانى رايت كيف كان امين فى الشهور الأخيرة مرهقا الى حد الجنون فهو مصاب بصداع يجعله غير قادر على فتح عينيه على اتساعهما . او يشكو من آلام المعدة وبشعور قائم بالغثيان او مشتعلا بالغضب ينهى نقاشه بالسباب وأحيانا بالتشابك بالأيدى قلت لسميرة :

ـ هل يمكن أن يكون أمين متعبا الى هذا الحد لمجرد الاختلاف مع ما يطرحه رفاقه من أفكار سياسية ؟.

استفزها كلامى :

ـ تطرحين الأمر بشكل غريب عجيب كأن الاختلاف على طريقة طهو السبانخ . ليست المسألة اختلافا انه شعور صادم بخيبة الامل والخذلان كأنك كنت تتبعين كبيرا أنتميت له وآمنت به ثم اكتشفت انه قواد يبيعك مع أول منعطف !.

كدت أقول انها تبالغ ولكننى لم أجرؤ فقد كانت منفعلة ولم أرغب فى تعقيد الأمور .

سميرة أصغر منى ومن أمين ومع ذلك فهى اكثر رسوا وحسما

قررت منذ سنوات ان عبد الموجود انتهازى وانه وجماعته يصلحون. لم تقبلهم في أى وقت وكانت تنظر اليهم بعين الشك. ساعتها لا أنا ولا امين صدقناها فهل كانت على حق منذ اللحظة الاولى ام انهم كانوا يصلحون ثم فسدوا ولم يعودوا كذلك ، وهل كنا انضج منها ام كنا اغبياء ؟.

كيف يأتى النوم ومن اين يأتى والاسئلة تتكاثر على وتطن فى راسى وتعذب كأنها ربات العقاب .

كان الر... الثلاثة الجالسون على المنصة هذا المساء شديدى الاختلاف فى ... هم فالوزير السابق ابيض له راس كالبيضة يؤكد شكلها صلعة ... اللمعان كان فى كامل ملابسه الرسمية كأنه ذاهب لعقد قرانه ، أما الكاتب فكان شعره الرمادى خشنا مهوشا أطول قليلا من المعتاد وكان يلبس سترة صيفية قصيرة الكمين عليها أثر كرمشات تشى بأنه عندما خلعها فى الليلة السابقة نسيها على مقعد جلس عليه بعض أفراد الاسرة . اما النقابى القديم فقد كان رجلا مسنا تكثر فى وجهه التجاعيد يميزه شعر قطنى ويلبس قميصا سمنيا بكمين طويلين ويزرر قميصه حتى أعلى الرقبة رغم أنه لم يكن يلبس رباط عنق .

بدوا مختلفين فى الشكل والملبس وحتى فى أسلوب الحديث فقد تحدث الكاتب بالفصحى السلسة وتنقل الوزير ما بين الفصحى والعامية وكان يخطىء فى الحالتين أما النقابى فكان كلامه بعامية بسيطة ومؤثرة . ورغم الاختلاف كادوا يتفقون فيما قالوه وكأنهم قرأوا على نفس الشيخ واتفقوا مسبقا فيما بينهم .

قبل سنوات قليلة كان مشهد كهذا كفيل بهز ثقتى فيما أعتقد، أقول ما دام هؤلاء الناس على اختلاف مواقعهم قد اتفقوا على قول هذا الكلام فلابد انه الحقيقة ولابد أننى المخطئة أشك فى نفسى واكذبها . الآن لم اعد افعل ذلك ، وعاد السؤال الذى يشغلنى هو: « ما الذى يجعل اليمين واليسار والوسط يجمعون على نفس الشىء ؟ » حين اطرح السؤال على سميرة تجيب بلا تردد « كلهم يمين ، لماذا لا تبصرين ما أبصر ! » تكرر فى احتجاج : « صدقينى ، لماذا لا تصدقينى ؟! »

الأمر المدهش فى سميرة انها رغم شكوكها الغالبة تثق ثقة مطلقة فى الناس وتظل تكرر : « الناس حلوين مثل الفل » وعندما أقول

لها وأنا أبتسم : « وأولائك الذين تسلطين عليهم لسانك بلا رحمة أليسوا ناسا !؟ » فتجيب : « أتحدث عن الناس العاديين الذين لا يدعون شيئا ، همومهم كثيرة وعيوبهم كثيرة ، ولكنهم لا يدعون أنهم سفراء ومبعوثون وقادة وثوار وقابضون على حقيقة الدنيا والآخرة .. عندما اقول ناس افهمى انى اقصد الغلابة ! » فاستغرب منطقها واستغرب ايمانها المطلق بما تقول ، وأستغرب أكثر تجاور اليقين والوسواس فى صدرها . احيانا أقرر انها حادة ومتطرفة واحيانا اتساءل ان لم تكن اعفى منى وانضج وأكثر جراءة ؟! .

قمت بإجازتي السنوية وعندما عدت الى عملي ابلغت أن سيدة تدعى زينب عبد الحميد اتصلت تليفونيا عدة مرات فقدرت انهـا تريدني لأمر ضروري . ذهبت لزيارتها بعد انتهائي من العمل وعندما طرقت بابها فتحت لي فتاة لا أعرفها ، فهمت منها أنها تقوم بلوازم البيت وترعى زينب عبد الحميد التي كانت تلازم الفراش منذ اسابيع .

وجدتها ترقد في سريرها وبدت لي متوجسة من حالتها الصحية وان لم ار فيها ما يدعو للتوجس . كانت اكثر نحولا وبوجهها شحوب وشيء من الوهن ولكنها تحدثت معي بشكل عادي ونادت على الفتاة التي كان اسمها نادية وطلبت منها أن تعد لنا القهوة وعندما قمت للانصراف اصرت على مرافقتي الى الباب .

زرتها مرة اخرى بعد اسبوع وتأكدت انها تواظب على ما وصفه لها الطبيب من دواء وأكدت عليها ان تتصل بي لو احتاجت أي شيء. لم تكن صحتها قد تحسنت ولكنها أيضا لم تكن قد تدهورت . قبل أن أنصرف كتبت عنوان البيت للشغالة ورقم تليفوني في العمل .

بعد يومين استيقظت على طرق محموم على الباب ولما فتحت وجدت نادية باكية ، قالت أن زينب عبد الحميد استيقظت قبل ساعتين وقامت الى الحمام وتقيأت ثم سقطت في غيبوبة . وكان التاكسي ينتظر بالباب .

وجدتها في السرير مغمضة العينين بلا حراك . كانت فعلا في غيبوبة : اتصلت بطبيب من زملاء سعد . جاء ثم جذب الغطاء على وجهها وامسك بيدي وهو يصحبني الى خارج الغرفة ويغلق الباب عليها : « انها ميتة يا سوسن ! » « ميتة ... كيف ؟! » « ميتة ! » كنت قد أخبرته انها والدة صديقة لي مسافرة في الخارج . طلب مني بطاقتها ليستخرج شهادة وفاة وذهب .

الباب مغلق على المرأة التي فارقت الحياة ونادية تنتحب وأنا افكر : « ما العمل الآن ؟ » لم يكن أمامي الا سميرة اتصلت بها في مكتبها أفهمتها بما حدث . قالت : « سأنصرف » بعد ساعة كانت سميرة عندي . قالت أنها مرت بالبيت وأخبرت أهلها ان امرأة من معارفنا توفيت وأننا في مقام أولادها المسافرين في الخارج . »

امى ستلحق بى بعد قليل ، وابى ذهب ليقوم باللازم »
ـ سوسن لم تقولى لى أبدا ان لابيك زوجة ثانية ؟
ـ لم أعرف بالأمر الا العام الماضى ...
ـ العام الماضى !؟

توقعت أن تسألنى أكثر ولكنها لم تفعل وجلسنا صامتتين حتى جاءت خالتى سيدة وفى أعقابها عم مصطفى يصطحب امرأة بدينة متوسطة العمر تلبس ثوبا اسود وتحمل فى يدها لفافة كبيرة ورجلان يحملان نقالة معدنية ودخل اربعتهم الى الحجرة المغلقة . ثم خرج عم مصطفى والرجلين وبقيت المرأة البدينة التى سمعتها تطلب من نادية أن تسخن ماء وتضيف بلهجة قوية آمرة : « أريد الماء دافئا وليس شديد السخونة !. » ثم « نادى على الستات » .

دخلنا الحجرة . كان الرجال قد أفسحوا مكانا للنقالة المعدنية ونصبوها . أما زينب عبد الحميد فكانت على حالها فى السرير مغطاة كما تركها الطبيب . وكانت السيدة البدينة قد جلست على مقعد مجاور للسرير وفتحت اللفافة التى أتت بها . كان بها أمتار من الحرير ومنشفة وزجاجة ماء ورد .

أمسكت المرأة بخيط ولضمته فى ابرة ناولتها لخالتى سيدة التى أمسكت بقطعتين من القماش الأخضر وراحت توصلهما ببعضهما ليصبح عرض القماش مزدوجا . اعطتنى المرأة قماشا أبيض وأعطت مثله لسميرة فبدأنا نحذو حذو خالتى سيدة . كنا نعمل فى صمت لم يقطعه الا صوت المقص عندما امسكت المرأة به واعملته فى قطعة من القماش . وكان الهواء فى الحجرة ثقيلا كأنه مادة تتيبس فى الرئتين وتتحول الى حجر .

ثم أحضرت نادية الماء وتعاونت خالتى سيدة مع المرأة البدينة فى نقل زينب عبد الحميد من فراشها الى السرير المعدنى ثم خلعت عنها ملابسها وخاتمها الذهبى الذى كان فى بنصرها الأيسر وسلسلة تنتهى بحلية من الذهب على شكل قلب . وضعت المرأة الملابس جانبا وأعطت الحلى لخالتى سيدة التى أعطتها لى فوضعتها فى جيبى .

كانت زوجة ابى مسجاة أمام عينى عارية تماما . بدت لى نائمة سوف تصحو بعد قليل حتى اننى جفلت، عندما سكبت، المرأة دفعة ماء من كوز معدنى على الجسد الساكن وبدأت بتصبين الشعر والوجه والأذنين والعنق ، تصبن ثم تسكب الماء فى دفعات قوية وهى تردد بصوت جهورى :

لا الــــه الا اللـــــه

لا الـــــه الا اللـــــه
فى الموت الشهادة وساعة الولاده
لا الـــــه الا اللـــــه
ثم تنقل الى الصدر والذراعين والبطن والفخذين والســـاقين تصبن وتغسل بالماء :
انزلى قبرك ، سلمى على أهلك
قوليلهم آنسناكم يا عبـاد الله
لا الـــــه الا اللـــــه
كانت الدموع تغطى وجه خالتى سيدة وهى تنحنى على المـاء تغترف منها وتسكب على الجسم المسجى وتكرر بلا انقطاع :
لا الـــــه الا اللـــــه
لا الـــــه الا اللـــــه
والمرأة السمينة تواصل عملها تصبن الجنب الأيمن والظهـــر والمقفى ثم تصبن الجنب الايسر وتصب الماء وهى تردد :
مقعـــدك مقعـد الـــكرامة
خـــرجتك خرجـــة الشرف
لا الـــــه الا اللـــــه
ثم تحرك يدها بايقاع متسارع تملأ الكوز وتلقى بما فيه بقوة المرة تلو المرة على الجسد كاملا من شـعر الرأس حتى أصـابع القدمين :
لا الـــــه الا اللـــــه
لا الـــــه الا اللـــــه
لا الـــــه الا اللـــــه
ويبدو الصوت كجوقة كاملة رغم صمتى وصمت سميرة وصـمت نادية التى التصق ثوبها بصدرها مبللا بالعرق ورذاذ الماء المتطاير والدموع .
جففت المرأة السرير المعدنى بمنشفة ثم جسد زوجة أبى بمنشفة اخرى . تطلعت الى الجسد المغسول فعاودنى الشعور بانها نائمة ، فى سكونها عذوبة وصفاء . كانت طويلة ونحيفة سمراء سمرة رقراقة كالقهوة الشقراء . لم يكن بالجسد المسجى شىء من الترهل لا فى الثديين الصـــغيرين ولا فى البطن والفخـــذين . وكان الوجـه وديعا غطته المرأة البدينة بقطعة من الشاش أعقبتها بقماشة بيضـــاء على الصدر ثم فردت ثلاث راقات من القماش القطنى الابيض غطتهم بالحرير الأصفر فالأخضر واخيرا بقماش حريرى أبيـض رقيق به

زركشات وتجعيدات من نفس لونه ثم افرغت زجاجة ماء الورد عليه بعدها امسكت بطرف الاقمشة السبع وأمسكت خالتي سيدةبالطرف المقابل وقلبتاه معها ثم ادخلتاه تحت الجسد الذى أصبح ملفوفا في الكفن . وجاء الرجال حملوها وذهبوا .

بكت خالتي سيدة طويلا وهى تكرر أن المسكينة ماتت دون أن ترى أولادها البعيدين في الغربة . تبكي وتكفكف دمعها ثم تقول كأنما تواسى نفسها : « لكن ربنا أوقف لها أولاد الحلال ، لانها أكيـد كانت بنت حلال الله يرحمها » .

وعندما عاد عم مصطفى بعد ساعتين قال موجها حديثه الى : « اكتبى لاولادها يا سوسن كان كـل شيء متيسرا . كانت طائرة كالريشة ونحن نحملها على أكتافنا ونهرول للحاق بها . اكتبى لهم كان كل شيء متيسرا والحمد لله » ساعتها بكت سميرة ، انسالت الدموع من عينيها غزيرة ومدرارة فبكت أمها معها .

اقمت ببيت زينب عبد الحميد ثلاثة ايام . قلت لأمى ما قالته سميرة لأمها ، ان التى ماتت هى أم صديقة لنا مسافرة فقالت أمى: « وما شأنك انت ؟ وهل تبحثين عن المتاعب بحثا ! » وقلت للجيران الذين اتوا للعزاء أن المتوفاة خالتي وان أمي وباقى اخوتي يقيمون فى أسوان ولم يتمكنوا من المجيء وقلت لاصدقائى ان المرأة أخت أبى فى الرضاع وليس لها أهل الا نحن . كنت اكذب طول الوقت ، اؤلف حكاية مقبولة للبعض واغيرها تماما لتصبح مقبولة للبعض الآخر واشعر فى نهاية اليوم بانهاك هائل وضيق فى صدرى فما الذى كان يحدث لو لم تقم سميرة معى تلك الايام ؟.

مساء اليوم الثالث أغلقنا باب الشقة بالمفتاح الـذى سلمناه لبواب العمارة ليعيده الى صاحب البيت ومضينا . سميرة تحمل فى يدها حقيبة صغيرة بها صـور ورسائل متبـادلة بين أبى وزينب عبد الحميد وانا أحمل فى جيبى السلسلة الذهبية والخاتم الذى نقش عليه اسم أبى .

- ٧ -

- هل اخبرك سعد بسفره ؟
- لم يخبرنى
- أخوك جبان ، سافر سرا كانه لص ولم يترك الا هذه الرسالة لزوجته .

كلام مقتضب فى سطور قليلة قرأتها ثم طويت الورقة واعدتها اليها :

- ثم يعطك عنوانه اذن ؟
- لم يقل لى انه ينوى السفر !

قمت لأعد فنجالين من القهوة ، كان الأمر قابضا بما لا يطاق. هل تريد عنوانه لكي تذهب اليه مرة اخرى وتعيده قسرا . امي لا تتعلم ولا تتوب كأنها قطار سكة حديد يجرى الي مقصده لا فرق ان كانت علي جانبيه ملاعب للاطفال أو قرى متفحمة ... أى قطار وأى حديد ! وجهها شاحب وعيناها غائرتان بهما آثار بكاء وارق ، انها قلقة الي حد الفزع فلماذا أظلمها ؟

اقامت أمي الدنيا ولم تقعدها بحثا عن سعد . رجحت أنه سافر الى باريس أو روما فاتصلت تليفونيا بالمارف والاصدقاء فى هاتين العاصمتين تطلب منهم البحث عنه . علق مجدى ساخرا : الخطوة القادمة لخديجة هي تبليغ الانتروبول وتكليفهم بالقبض على الولد حيا أو ميتا ! » فزجرته زينب .

بعد ستة أسابيع من سفره وصلتنى رسالة من سعد : « كان السفر ضروريا ... مجرد محاولة قد تنجح لوصل ما أنقطع ، واحياء المشروع القديم ، سأحاول ان أنتظم فى الدراسة واعود الى الرسم . صحتي جيدة . تلازمنى الوحشة وأحيانا أشعر بالخوف ولكنى ما زلت أتطلع الى طاقة صغيرة مفتوحة فى الجدار . افتقدك يا سوسن وأعرف أن وجودك ولو فى البعد سند هائل لى . »

عنوان سعد الذى يؤرق أمى البحث عنه معى مكتوب بخط يده على الخطاب الذى أرسله الى من باريس . احمله فى حقيبتي أريد ان أعطيه لها فترتاح واخشى ان يؤدى ذلك الى حادث مؤسف جديد . أقرر أن الحكمة تقتضى الا أعطيها العنوان ويلازمنى شعور بالذنب واحساس موجع بأننى أقسو عليها .

قررت أن أقول لها ان سعد اتصل بى تليفونيا من باريس :
ـ قال انه يشتاق لك كثيرا ويريد الاتصال بك ولكنه لا يجرؤ لأنه يعرف انك غاضبة .
ـ هل تكذبين ؟
ـ ولماذا أكذب ؟
ـ هل قال لك سلمى على ماما ؟
ـ قال سلمى عليها وقال انه يفتقدك ويقلقه انه تصرف بما يغضبك .
ـ لماذا اذن لا يعود ؟
ـ لأنه يريد أن يتعلم الرسم ويرسم .
ـ انه ولد طائش . لو اتصل بك مرة أخرى قولى له انه لم يعد يعنى لى شيئا . لم أعد أمه ولا أريد أن أكون . عندما يتصل أطلبى منه رقم تليفونه والعنوان !

سعد يكتب لى رسائل وبطاقات تثير القلق ، أفضى لسميرة بما اشعر به تقول :
ـ سعد مترف وهش . أكتبى له يا سوسن ، أكتبى له أنه ما دام اتخذ قرارا جريئا وقاطعا بهذا الشكل فليجمع شتات نفسه ويتصرف بالمسئولية اللائقة ويبدأ فى انجاز ما يريد .
ـ الكلام سهل يا سميرة والانسان ليس آلة .
ـ ومن قال انه آلة ولكن هناك شىء مترف فى اكتئاب سعد .
ـ انه حزين ومهزوم ويبحث عن مخرج .
ـ أحيانا لا افهمك يا سوسن ان كان سعد مهزوما فلماذا لم يبق بهزيمته ويتحمل مسئولياته كطبيب وزوج !
ـ أنت لا تفهمين !
ـ أنت على حق . قدراتى لا تمكننى من الفهم !

قالتها بحدة ساخرة كأنها تلقى بالكلمات فى وجهى .

مكتئب على طريقة المترفين أم حزين حزن المحاصر لم يعد هو السؤال فقد ذهب سعد .

عندما دخل على مجدى ذلك الصباح عرفت قبل أن ينطق :
ـ سأسافر بعد ساعات لان سعدا بالمستشفى ، ارتدى ملابسك ساوصلك الى امك .
ـ انتحر ؟
ـ شدى حيلك .

تحاشى التقاء العيون فعرفت انه ذاهب ليعود به محمولا فى

نعشه . أوصلني الى بيت أمي . مد يده لمصافحتي واجهشي بالبكاء. وقفت في الشارع أمام باب العمارة اتابع سيارته وهي تبتعد .

القي سعد بنفسه تحت عجلات القطار المقبل بسرعة الى محطة مترو الأنفاق فهل كان قرارا مبيتا حمله الى ذلك النفق المظلم ينتظر الوحش المقبل باتجاهه بحدقتين مرعبتين أم انه كان خاطرا مباغتا داهمه فجاة فنفذه بلا تفكير ام هل زلت قدمه فسقط بلا وعى أو ارادة تحت عجلات القطار ؟

ذهب الفتى الجميل الذى كنت احبه لأنه اخى واحبه لأننى لم أر رجلا فى عذوبته . أبكيه بحرقة حتى عندما تجف دموعى ولا أبكى. ابكيه لأنه اخي وأبكيه لانه كان جميلا وابكيه لانه مات قبل الأوان واشفق على امى التى بدا لى ان موت سعد سيجعلنى انفر من مجرد رؤيتها . أرى فجيعتها فأعرف ان المها اعظم واجدنى اتساءل : لماذا قسا سعد هكذا عليها ؟!

عاد مغلفا فى صندوق وواريناه التراب وذهبنا .

***

رأيته وهو يدفع بالباب الزجاجى خارجا من احدى شركات الطيران لم يعد الولد الذى يؤكد تحول جسده وملابسه أنه ولد . كان هادى الآن رجلا ربعة فى منتصف عقده الرابع بجسده شيء من امتلاء وان لم يكن ممتلئا تشى قصة شعره واطار نظارته وهيئة شاربه وملابسه البسيطة المنتقاة رغم ذلك بعناية باليسر المادى والمكانة الاجتماعية .

حياني بصخب وحرارة ولم أكن قد التقيت به منذ أكثر من عشر سنوات . استفسر عن ملابس الحداد التى ارتديها فقلت له . اخبرنى انه مسافر فى اليوم التالى وانه يعمل منذ سنوات مدرسا للأدب العربى بجامعة هولاندية . قال قد لا نلتقى قبل سنوات ودعانى لتناول الغداء معه فقبلت . وعلق ونحن ندخل الى القاعة المكيفة لمطعم بأحد الفنادق الكبيرة : « هنا على الاقل بامكاننا ان نجلس بشكل انسانى بعيدا عن الحر والرطوبة الخانقة » .

جلسنا وطلبنا كوبين من عصير الليمون واخترنا ما سوف نتناوله من طعام وبدا ونحن نجلس صامتين أننا لن نجد ما سوف نقوله لم يسألنى عن سميرة ولم أعرف ان كان قد علم بوفاة امين . تحدث عن عمله ودراساته ، عن حياته فى هولاندا قال أنها سهلة وهادئة رغم لحظات الشعور بالغربة . قال انه تزوج مرتين ولم يوفق

وسألنى ان كنت قد تزوجت . واتى النادل بالطعام فأكلنا ولما انتهينا غادرنا المطعم وذهب كل منا فى سبيله .

فى الشارع لفح الهبو الساخن وجهى وبدت الرطوبة أشد وطأة بعد ساعتين من الجلوس فى قاعة مكيفة الهواء . كان اليوم قائظ الحرارة ، الشمس تقدح والهواء مزموم والأرض كالنار تذيب الأسفلت وكغيرى من المارة سرت مسرعة اتقاء للحرارة وكنت اتساءل ان كانت شدة الرطوبة هى التى تثقل صدرى أم انه شعورى بالضيق. سرت حتى وصلت الميدان الكبير .

هذا ميدان كبير ، كالمدينة به كل شىء : البناية الفخمة والبيت العتيق الذى يقاوم بلاء الزمن والفندق والبنك وشركة السياحة والمحل التجارى والمقهى القديم والمتحف المصرى والجامعة الاجنبية والكشك الخشبي الذى يبيع أشرطة الشيخ عبد الباسط وأم كلثوم وبائع الجرائد ومحطة الاوتوبيس والطريق الصاعدة بالسيارات الى جسر معلق والسلالم التى تهبط بالناس الى نفق أرضى للمرور وسيارة الأمن المحشوة بالجنود الفقراء وماسورة ماء الصرف المكسورة حولها بركة الماء الآسن ونافورة الزينة . كل شىء فى هذا الميدان الذى يتوسطه نصب تذكارى للشهداء . أتطلع الى الميدان فتلتقط عينى بين سيل السيارات المندفعة سيارة سوداء من ذلك النوع الشائع فى نقل الموتى لا تشبه تلك السيارة الاخرى التى استوقفتنى من قبل يجرها جوادان مطهمان وتزينها ملائكة صغيرة مطلية بطلاء مذهب ، كانت سيارة كئيبة وجرداء كمضمونها .

« هذا ميدان كبير » كررت لنفسى وانا اتطلع الى المارة وهم يعبرون ركضا فى حذر متوجس ، لم تكن هناك أرصفة ولا خطوط لعبور المشاه . انه ميدان كبير وعلى أن اعبر بحرص كى لا تدهمنى سيارة مسرعة فأفقد حياتى بلا ثمن .

روايات الهلال تقدم :

وكانت المدن ملونة

بقلم :

رجاء نعمة

تصدر : ١٥ يناير سنة ١٩٩٠

رقم الايداع : ٧٨٢٦/ ٨٩
الترقيم الدولى : ٠ - ٤٥٢ - ١١٨ - ٩٩٧ ISBN



رضوى عاشور

● من مواليد القاهرة عام ١٩٤٦

● تخرجت فى كلية الآداب جامعة القاهرة فى عام ١٩٦٧ وحصلت على الدكتوراه فى الأدب الأفرو - أمريكى من جامعة ماساشوتس بالولايات المتحدة عام ١٩٧٥ .

● صدر لها كتابان فى النقد هما الطريق إلى الخيمة الأخرى : دراسة فى أعمال غسان كنفانى (١٩٧٧) والتابع ينهض : الرواية فى غرب افريقيا (١٩٨٠) ونصان إبداعيان هما الرحلة : أيام طالبة مصرية فى أمريكا (١٩٨٣) وحجر دافىء رواية (١٩٨٥) ولها مجموعة قصصية تحت الطبع بعنوان « رأيت النخل » .

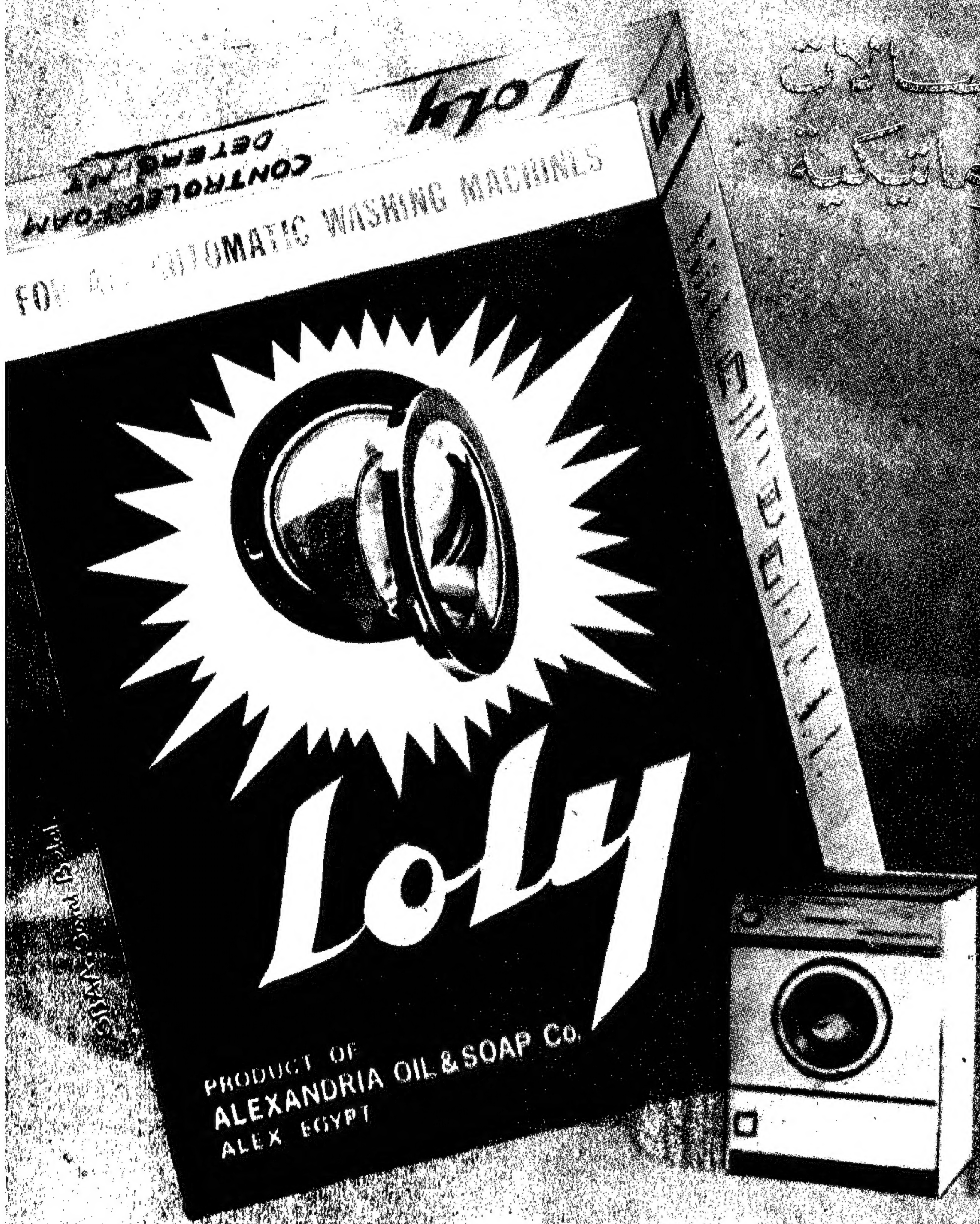
● تشغل وظيفة أستاذ بقسم اللغة الانجليزية بكلية الآداب جامعة عين شمس .

هـذه الـروايـة

« كيف يتعكّر ماء النبع ومن أين تأتى نباتات الوَحْشَة وبأى قانون تتكاثر وتعيق المجرى وتسد الطريق ؟ » تتساءل سوسن فى محاولة للفهم وترتيب مفردات عالمها .

سوسن هى الابنة وخديجة هى الأم ، والرواية التى تجمعهما وتشتركان فى سرد وقائعها تقدم مجموعة من العلاقات التى تجسد عالمين مختلفين متناقضين وإن تداخلا وتشابكا . عـالم يبدو مهيمنا وراسخ الدعائم ، تتحرك فيـه خديجـة بخطى الملوك الـواثقة ، وعـالم يتخلّق عبر الأسئلة والهموم التى تعيشها سوسن .

هى رواية عن أم وابنتها وهى أيضا رواية تلتقط شيئا من ملامح تاريخنا الراهن لهجومه وهزائمه وخيباته واشواقه فى التجاوز .



للغسالات
الأوتوماتيكية
AUTOMATIC WASHING MACHINES
Loly
PRODUCT OF
ALEXANDRIA OIL & SOAP Co.
ALEX EGYPT



مصر للطيران

٢٠٠ رحلة أسبوعيًا إلى ٥٠ مدينة
فى مختلف أنحاء العالم